روکا ساندرا

الطبعة الأولى
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

اسم العمل : روكا ساندرا
اسم المؤلف: جميلة صالح محمد
التدقيق اللغوي: منى حلمي
تصميم الغلاف: محمد مجاهد
الإخراج الداخلي: عمر أسامة
رقم الإيداع: ٢٧٤٢١ / ٢٠٢٤
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٩٩٩-٩٠-٧

مسار للنشر و التوزيع
شارع ونس - قسم يوسف بيك - الزقازيق - الشرقية - مصر
01020439639
massar.pub1@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، ورقيًا أو إلكترونيًا، سواء بشكل كامل أو جزئي أو عرضه مجانًا عبر أي وسيلة وبأي شكل من الأشكال من دون الحصول على تصريح خطي من دار مسار للنشر.

روكا ساندرا

جميلة صالح محمد

مَسَار
للنشر و التوزيع

إهداء

إلى ساهير، أحمد ..

هيوستن، تكساس
River oaks

١٥ ديسمبر

"روكا، إن كنتِ لا تزالين على ذات الأريكة، أود أن أُذَكِّرَكِ كم أنا أحبك! ساندرا".

كان هذا نص الرسالة التي جعلتِني أبتسم بينما بدأتُ أرشف قهوتي الباردة حينما أوشكتُ الرُّسُوَّ على آخِر ضفاف الليالي البيضاء قال فيها:

- فَضَضْتُ الغلاف، كانت الرسالة منها!

كتبتُ إلى ناستينكا..

(آه، اِغفر لي، أتضرع إليكَ راكعة على ركبَتَيَّ أن تصفح عني. لقد خدعتك وخدعت نفسي، كان حلمًا، خيالًا، ما أشدَّ ما أتألم من أجلك اليوم! فاصفح عني، سامحني)

حتمًا إنها إحدى معجزات سيد الأدب الروسي، قلت هذا من ذات زاوية كل الصباحات التي تبدأ بالثامنة، ركن خاص ما كان لأحد أن يَقرَبَه قبلي، جوار النافذة الزجاجية المطلة على " Tory bruch The Galleria hermès" "عادة ما أن أَلِجَ بقدميَّ بَهو المكان الرحب برائحة الڤانيليا حتى

أُلقي التحية على النادلة الآسيوية، لها قوام " تاو أوكاموتو" لترد بانحناءة مهذبة وتشير متَّبعة قواعد الذوق بيدها النحيلة أن تفضلي بالجلوس، فلن يجلس في ركنك الهاديء أحد، هي ساعة من نهار، ساعة واحدة فقط، تَلزمُني كي أجمع شتات نفسي، أعيد خلق ذاتي، تعرف جيسي على الدوام ما يلزمني لذلك من طقوس، معزوفة ساكسفون يبثها مشغل أقراص مدمجة بجوار ماكينة اللاتيه و الإسبريسو الرائعة دولتشي قوستو ، وكتاب ، مزيج السحر الثلاثي الذي تخلَّى عنه الرقميون من الناس، ربما أكون وحدي وربما يُشاركني فيه أوفياء الساعة الثامنة، ثُلَّةُ الزبائن الدائمين لهذا المكان المنافس لـــــــ"Tony's" في الرقي والتفرد.

جُو مالكوم؛ الطبيب النفسي وليد إشبيلية العجول ، دائماً ما ألحظه يَجرع كوب قهوته دفعة واحدة قبل أن ينطلق وهو يلقي بعبارات الإطراء الإسبانية لطاقم النادلات الحسناوات كي يصل مَشفاه قُبيل جنون الازدحام في تضارب تام مع فكرة الملاذ الهاديء التي قام على أساسها المكان، ولكنه وَفِيٌّ. كان على الدوام يجلس قُبالته مراهق أطول قامة ممن هم في جيله بعينيَن خضراوَيْن وأنف متناسق فوق شفاه ممتلئة، لا يكف عن مضغ العلكة، دائماً ما يضع سماعات تغطي شعرًا نحاسيًّا رفعه بطريقة مهذبة، شعرت كم تمنى لو بإمكانه لَكْم الطبيب لما يفسده من جو هاديء كان يحبه، وهناك في الزاوية القابعة خلف الباب الزجاجي العريض تحت شريط الصور الكلاسيكية كانت أريكة الزبون الأغرب،

صديق الساعة الثامنة لا يكاد يخطئها إلا في حالات نادرة لم تحدث، شابٌّ في منتصف الثلاثينات بهيئة مَهيبة زادت من هيبته ملامح حادة، عينان قاتِمتان بلون الليل كما لو أنهما لا تعرفان الالتفات وحاجبان دقيقان على بشرة خالط بياضَها احمرارٌ كحُبيبات نَمَش تفرقت على وجهه كله بخلاف لون معطفه الشديد السواد بحكم عمله كمحام، هكذا خمَّنت، لا يسمح لنظره أن يلتقي بغير هاتفه في كل المرات الثلاثينَ التي رأيته فيها، كل تلك التفاصيل صرت أحفظها.

كنت في هذا اليوم أشدَّ سحرًا من الأمس، هكذا قالت جيسي، سمحت للهواء بمداعبةِ شَعري الطويل فتطاير، لم يفلح وشاحي الكشميري بلون الرمل من إمساكه، أهدَتْه لي " نيها "؛ الابنة المتبنَّاة لجيراني القُدامَى الشتاء الماضي، أثقلت من ملابسي معطفًا من الجُوخ بلون سحاب هذا اليوم، كان قد أخفى تحته جسدًا رشيقًا كساعة رملية لم تنجح قِطع الكُرواسون بالقِشدة وليترات الكابتشينو من الفَتك بجماليَّتِه وهزم أسواره، كان حِذاءاي الغارقان من نوع Bordeaux قد ساعداني على الركض فوق رصيف امتد طوله لمئة متر عند آخِر مفترق طرق قبل أن أقف لاهثةً على باب بارتفاع مترين، أحمل مِظلَّة قد جاهدتُ على إبقائها بيدي ألا تطير بفعل المطر الذي جُنَّ فجأة وجيوشِ الريح التي قلبت كل شيء رأسًا على عَقِب مُوقِعة إياي خمس مرات ممزِّقةً سروال levi's كنت قد ابتعتُه من إحدى المعارض المعنيَّة بإرسال

التبرعات لمرضَى الحروق، قبل أن تكون في استقبالي الأسيوية الجميلة بشعرها المرفوع وقد كشف عن وجه نقيٍّ دقيق بعينين مسحوبتين وفم صغير ينطق الإنجليزية كاليابانية فتكتفي بإيماءتها المفهومة لجميع الزبائن أهمُّهم أنا، ليدخل من ذات الباب من بعدي، هو...

***

الثامنة و ثلاث دقائق

مُبتلًّا، غارقًا، راجفًا، لاهثًا، لا يحمل مظلة لِيُودِعَها عند الباب، معطفه الأسود بدا أشدَّ اسودادًا تهطل منه المياه كغيمة، دخل مسرعًا خالعًا إياه لأول مرة، فألقَى التحية بصوته الراجف..

– مرحبا سيدتي، هل بإمكانك التصرف فيه لحين مغادرتي؟

النادلة ذات العشرين عامًا:

– حسنًا سيد لورانس، تفضل وسأحضر طلبك المعتاد فورًا .

كان معطفه الرزين يُخفي تحته شخصًا نحيلًا من غير ذلَّة، وقميصًا زاد سوادُه اللامع من جاذبية العضلات البارزة تحته، مُمسكًا بهاتفه الذكي دون غلاف ليرتمي على أريكته كمن هبط لتوه قَذْفًا من السماء... جلس مُغمِضًا عينيه ليتلقط أنفاسه المتقطعة ويُشعل لُفافة مونتي كريستو ابتغَى منها تدفئة حنجرته الجريحة بفعل البرد..

الآن، أنا أنظر إليه كما لو لم أره من قبل، أَطَلْتُ النظر أدقق في الهيئة الأخيرة التي صار إليها رجلٌ بأناقته، فحانت مني ما يشبه ابتسامة مائلة وحاجبين مرفوعين أوقفتهما ثلاث سَعلات متتالية بفعل السحابة الدُّخَانية التي أثارتْها لُفافته في زاوية مطعم في قلب المدينة.

***

قُبيل التاسعة صباحًا

مضت خمس وأربعون دقيقة قَلَبْتُ فيها الصفحةَ تلو الأخرى انتباتني فيها شتَّى المشاعر، تقلبت في أريكتي، كان ظهري قد أصابه يَبَسٌ جرَّاء جلسة طويلة كانت يدي فيها فقط التي تتحرك، اعتدلت، حاولت التمطِّي كقطة نهضت من نومها توًّا، رشفت الرشفة الأخيرة من القهوة المثلجة و بعينين مُغبشتين وفي أجزاء من الثانية كان المطر قد اشتدت ضرواته وكان للريح زئيرٌ قد كَسَرَ -مُسببًا شظايا تطايرت في كل مكان- بابَ المطعم الرئيسي وأربعةَ ألواح ضخمة من نوافذه و صفوفًا زجاجيةً من أكواب "بيلجر و مايسون جار" حينما لمحتُ المحامي الغريب رغم الجو العاصف، يغادر المطعم، ناسيًا معطفه الغريق وهاتفه وحيدًا، على الطاولة.

أنا لا أعرف هذا الرجل، لم أتحدث معه قبلًا، لم يبادر ولم أفعل أنا بالمقابل، لكنها المرة الأولى التي ألحظ فيها ارتيابه بهذا الشكل، كمن

يهمني أمرُه، هو لم يَنْسَ في كل المرات التي جاء فيها هنا أيًّا من متعلقاته، لا مفاتيح، لا مَحفظة أو حتى قطعة نقدية زائدة عن الحد، بالعكس، كان رغم انهماكه في هاتفه لا مجال لديه لفقد التركيز كحاسبٍ آليٍّ، التفتُّ يمينًا ويسارًا، سرْت كمن يركض تجاه الهاتف المنسيّ، حاولت اللحاق بمن لا يُفلته، أنَا الآن في الخارج أُجابه عُتُوَّ الريح وحدي، أنادي بصوت بُدِّدَتْ دِيسبيلاته تحت سَوط المطر..

– عذرًا.. يا هذا، هاتفكَ ها هنا.. لقد نسيتَه، يا هذا.

لم يكن يسمعني؛ فقدِ ابتعد عن مدى بصري أمتارًا طويلة، نال مني إحباطٌ جعلني أتمتم بكلمات غير مفهومة وعُدت أدراجي بشَعر مبلل قد التصق بمعطفي، وأصابعَ جريحةٍ تئن ألمًا تجاه طاولة النادلات الهلالية وصوت الساكسفون الذي اختفى حين بادرتُ بالسؤال لنادلة باسم غريب لم أحفظه، كانت بطول متر وخمسين سنتيمترًا ذات نَحافة مفرطة وعين حادة كصقرٍ بِسلوك لا مُبالٍ، تساءلتُ من قبلُ بها للعمل هنا:

– من فضلِكِ، لقد عثرتُ على هذا الهاتف على المنضدة رقم اثنين المجاورة للباب، يبدو أن مالكه قد نسيه أو تركه متعمدًا، هل تعرفين من يكون؟

كان بإمكاني ترك هذا الآي فون العائد لعام مضى بحوزة قسم

المفقودات ليتولى أمره، لكن شيئًا ما حينئذ لم يجعلني أُقْدِم على هذا الفعل، وكأن شيئًا ما قد منعني.

أطلقت النادلة النحيفة التي تُظهر بطاقة قد علَّقتها على مِئزر الزي الرسمي اسمها الروسي" إِلينا" زفرةَ استنكارٍ، أعربت بكلمات روسية فهمتُها أنا:

– يا لِهذا الغبي! عذرًا على هذا اللفظ بإمكانك سيدتي تركه هنا فإن عاد سنرده إليه، وبإمكانك محاولة إعادته إليه إن كان يهمك الأمر.

حينها قد تبقَّى خمسُ دقائق فقط على وصول شاحنة ستحمل ستًّا وتسعين وجبةً من الأرز المطهوِّ بالبخار واللحم المفروم بمجموعة التوابل عالية الجودة عهدتْ إدراة المطعم على توزيعِها كل صباح لمجموع المطحونين في midtown سأشرف على توزيعها بنفسي، في شيء لا يُثنيني عنه سوى مرضٍ أو موتٍ، فخرجتُ في استقبالها بحوزتي مظلتي العنيدة ذات الشكل السداسي، حقيبتي العتيقة و معطف الغريب وهاتفه.

***

التاسعة والنصف صباحًا

في زاوية جديدة من Midtown

في تناقض صارخ بين ساعتِي الصباحية في أحضان ركن النعيم خاصتي وعبقرية كين كول "سونغ بيرد "، كنتُ قد وصلت هنا في شيء لا أعرف لِمَ قد يكون لا زال موجودًا، هنا حيث عشرات الأُسَر قد تكدَّست فَي ما يشبه عُلب الصفيح الرديئة، أُحيطت بمستنقعات من ماء عَفِن قد اختلط بالطين والبُراز، تفاديت في كل المرات التي وَطِئْتُ فيها هذا المكان أقذرَ الشتائم التي صُبَّت في أذني كقارٍ حارٍّ من ثُلَّةِ سُكارَى النبيذ الرديء، كانوا قد اعتقدوا بأن معطفًا من الجوخ الثقيل فقط، يمثل فارقًا في الطبقة الاجتماعية يثير حقدًا وبُصاقًا على كل شيءٍ حتى أنفسهم، على النقيض من اللطفاء المسالمين الذي لا يعرفون مكانًا غير هذا، هم نتاج الفقر منذ بدء الخليقة، آمنوا بسوء أقدارهم، وأن الحياة لن تمنحهم حتى رصيفًا نظيفًا غير الذي تحاول الشاحنة الابتعاد عن جبل القمامة ذي الرائحة المميتة القائم فوقه.

– آنستي، قد وصلنا.. لكن، هل عشرون دقيقة كافية لتوزيع الوجبات؛ آخذين بعين الاعتبار، الزوبعة الرملية، تفادِي ألواح الصفيح المتطايرة، أسلاك الكهرباء الممددة على الأرض، حبال المطر المنهمرة، قذارات سُكارَى النهار و حفلات البول الجماعي على الطريق!

– عشرون دقيقة، أو عشرون ساعة، لديَّ التزام تجاه الكل هنا، اللطيفين منهم و فاقِدي الوعي والذوق، لن يكون شيء أصعب من تواجدهم في هذا المكان، محاطين بالجَنَّة وهم في بؤرة الجحيم.

قلت هذا بينما ترجَّلنا من الشاحنة مرتدين واقيات المطر التي أحضرها العم "سليمان" لي وله استعدادًا لأيام مطيرة كهذه.

كان قد لحظ الجمعُ الغفيرُ من سكان الحي قدومَنا، فصاحوا مهلِّلين من خلف كُوَّات أكشاكهم قبل أن يكونوا في استقبالنا.

– آنسة ميلر، فلتحيا آنسة ميلر.

كنت أعرف أن تحيتهم صادقة بخلاف اللهفة التي كانوا يُبدونها لمجموعة الأطباق البلاستيكية المليئة بالأرز التي كشفتْ عنها بطن الشاحنة. كنت أعرفهم واحدًا واحدًا؛ العمَّة "أديت" وأحفادها الثلاثة؛ "فاهو، روبا، شينتي"، أرملة العم"باراك"، أماتته أزمة رَبْو حادة كان قد تغاضى عنها كثيرًا، وزاد من تفاقمها لفائف التبغ الرخيصة التي كان يتسوَّلها من شُبَّان الحي. كانت تحبني، يظهر ذلك جليًّا بِعناقها الحارّ ودعوات الانضمام لشُرب الشاي التي كانت تُعِدّه على صفيح النار . لا أنكر أن شايَها بنكهةِ الحب ذاك كان أشهَى من أي شاي شربتُه في مكان آخر . على بُعد اثنين من الأكشاك كان "موسى"؛ الشابُّ ذو الاسم المستعار، يُخفي عن سكان الحي كونَه مهاجرًا غيرَ شرعي، يَلحظون

غيابه طيلة اليوم من بعد الساعة العاشرة، ويعود عند سويعات الفجر .

كنت قد بدأت بمساعدته توزيعَ العلب الساخنة، كان سريعًا، نشيطًا، يقفز من فوق الطين، غير مهتم إذا ما أغرق المطر قميصَه البالي، يُلقي على مسامع السكان عبارات الحمد، كان يَعرف في أقسى الظروق كيف يشكر الرب.

– موسى، هل انتهينا؟ هل تخطينا أحدًا ما؟

قلتُ هذا وكنتُ ألهث وبدأتْ ظواهر الحُمَّى بالظهور عليَّ، أعرف أنني أضعف من أن أواجه بردًا كهذا.

– حسنًا آنسة ميلر.. خمسٌ وتسعون علبة بلاستيكية أصبحت بحوزة خمسةٍ وتسعين فردًا، صغارًا وكبارًا.. الأمر مذهلٌ حقًّا.

قال هذا وقد بانت منه ابتسامته الواسعة التي أحبها، حتى ظهرت من خلفه سيدة أربعينية بهيئة مكسورة ترتدي سترة صوفية قد توبَّرت فوق جُبَّة ظهر من تحتها كاحلُها المتسخ بفعل الطين برُفقتها طفلة قد بَلِيَ حذاؤها، بيدها دُمية لا تتجاوز الأربع سنوات، ليست أفضل حالًا من أمها، كانت راجفة متعبة بأنف يسيل، خطاها الثقيلة تُوحي وبوضوح أنها قد مشت مئات الأمتار حتى رست في هذا المكان. هَرَعْتُ إليهما، كانت شكواهما قد طفت على مُحيَّاهما، دعوتهما بإشارة من يدي أن تفضلا بالجلوس على المقعد الحديدي تحت سقيفة دكان الحي المقفلة،

وإشارة أخرى من عينِي للمهاجر قد فهم منها أن هناك علبة أخيرة فركض يجلبها على الفور..

- هاك سيدتي.. هذه لكما.

قلت هذا بينما كان شكر السيدة إيماءة من رأسها فقط، حيث لم تَقْوَ على الكلام ولكنني رأيت منها ما هو أبلغ، بيدها الهزيلة قد تمكَّنَتْ من فتح علبتها التي كانت قد بردت قليلًا، فطَفِقَتْ تُطعم طفلتها حبيبات الأرز وتمسح عن شفَتَيْها أي عالق من اللحم المفروم، دون أن تأكل، دون أن تزاحم طفلتها في شيءٍ، حاولت التدخل:

- هذه لكما كِلاكما.. فلـــــــــ...

لكنها أوقفَتْني حينما نظرتْ إليَّ، ونبتت عن فمها كلمات ثقيلة:

- أنا كنتُ جائعة؛ لأنها لم تأكل ليومين متتاليين، أما الآن و قد شَبِعَتْ، فأنا شبعتُ أيضًا، كل لقمة في جوفها نزلت في جوفي مثلها. عليك من هذا آنستي.. أنا فقط أم!!

كان وَقْعُ كلماتها عليَّ كنزع الروح، استأذنتُ وقد تهدج صوتي بالعودة للشاحنة دون أن يلحق بي سائقها الذي شارك أحد الرجال وجبته، كان الدمع قد تجاوز عيني فلم أستطع كَبْتَه ليزيد معطفي الواقي بللًا، ويمحوَ عن وجهي أي أثر لظلال العيون أو لأحمر شفاهي الوردي، ذاك ما أظهرَتْه المرآة الأمامية المستطيلة للشاحنة، كنتُ قد وجهتها

نحوي كي أعيد تطبيق ما أفسده المطر والدمع، بمستحضرات ناسبت بشرتي، التي فَرَّ منها الدَّمُ واستعاضت عنه بثلج، وظل العيون الذي قررت شراءه بعد وابل الإعلانات التجارية لـــــ "ماك"، أعاد لعينَيَّ الثقة التي انمحت بَغتة، فأنا وقد وُصِفْتُ لسنين طوال بأنني الجميلة للحد الذي لا يمكن إنكاره، دون أن أشبه أحدًا على وجه الخصوص، فكنت الجميلة وكفى والنقية بلا شوائب.

أعدتُ المرآة التي نالها من بخار أنفاسي ما نالت، حتى لمحت ذاك الآي فون النائم في عمق الحقيبة قد نبَّه عن وصول رسالة، حتى استذكرت ما كِدت نسيانه فالتقطته، بحركة من سبَّابتي فوق الشاشة الصقيعية فتح الهاتف الذي لم يعرف طريقًا لكلمات المرور ورموز النقش ليُظهر نص رسالة برقم طويل دون اسم: "أيًّا ما كان قد اقترفتُه يا لورانس، لا بد لنا أن نتحدث. حبيبتك كاميني".

أدهشني ما عرفتُه من معلومات خلال سطر واحد محدثة نفسي:

– إذن هو لورانس.. ولديه حبيبة تتوسَّل إليه.. يبدو هذا رائعًا، لا لا.. بل مؤسفًا.

ما أحببت يومًا هذا النوع من فَتش الخصوصيات التي لها مكانة القدسية؛ إيقانًا مني أن حدود معرفتنا بالآخر هي ما يسمح لنا بمعرفته أو التدخل فيه وإن كانت رسالة على شاشة هاتف بلا حماية. فما إن

أنهيت جملة قلتها بلا صوت حتى ظهرت رسالة أخرى: "اتصلْ بي الآن يا لورانس، اتصل وإلا... كاميني".

جفلتُ من وقع الرسالة الغاضبة وبأناملي الجريحة بدأت النقر على لوحة المفاتيح في رد سريع: "عذرًا آنسة كاميني! هذا الهاتف مفقود وهو بحوزتي الآن. روكا ميلر".

في رد أسرع:

- أوه! عذرًا.. كيف حدث هذا!؟

- ربما حدث صدفة أو عمدًا.. لا أعلم.. ولا أعلم هوية مالكه أو كيف بإمكاني رده إليه.

- يا لحماقته!! مالكه هو زوجي؛ لورانس دين.

اتسعت عيناي لما قرأته للتو، فذاك الغريب المتشح بالسواد متزوج من امراة تتوسله للرد عليها. فما إن هممتُ للسؤال عن أي عنوان قد يكون فيه حتى باغتتني:

- ستسألينني عن عنوانه أليس كذلك!؟ ها هو " برج wells fargo، شقة رقم ١٩" ذهبتُ هناك مرارًا فلم أجده، أو لربما -بشكل أكيد- رفضَ فتح الباب لي.. على كلٍّ آنسه ميلر.. هل تُسدين لي معروفًا بالوصول إليه؟ إن أعدتِ له هاتفه قد يقبل الاتصال بي.

تنامَى بداخلي إحساس غريب بأن شيئًا ما سيقودني إليه هذا الهاتف لأجيب دون تردد:

– بالتأكيد مدام دين.

***

منزل السيد، جورج ميلر

Montrose

كنتُ قد وصلت لمنزلي الكائن في " Montrose" كان قد انتابني من الإرهاق ما أثقل خطاي وألحق بي صداعًا حاولت تفاديه طيلة اليوم، خلعت حذائي الملطخ بالطين ورائحة البول لأعبر عبر بهو مُعتِم عتيق، على يساره مطبخٌ كانت جدرانه قد اتسخت بفعل أبخرة الزيت المتصاعدة، أشحت بنظري سريعًا لما يثيره فيَّ من اشمئزاز يؤكد لي في كل مرة الفارقَ الطبقي بيني وبين أي شخص آخر، حاولت المرور سريعًا لأصعد عبر سلم برونزي متآكل، يَقيني رؤيةً مأساويةً قبعتُ فيها سنين كثيرة، حتى وصلت غرفة جاهدتُ كي لا يشاركني فيها أيٌّ من إخوتي؛ تحديدًا كاثي؛ الابنة البكر لعائلتي المكوَّنة من ستة أفراد، الروتينية بلا طموح والمتغطرسة بلا سبب، لم تكن قدراتها العقلية بالبسيطة لكنها اختارت أن تحيا حياة كمَرْكَبٍ عائم بلا وجهة يصل إليها أو يغرق من خلالها، فكان الحياد معها وسيلة وقائية من عدوَى الخمول، فأغلقت

الباب من خلفي وألقيت بنفسي وبكل ما معي على سريرٍ من خشب متقشِّف يُصدر صوتَ صريرٍ مع كل حركة، لأغطَّ في نومةٍ اتخذتُ فيها شكل جنين امتدت لثلاث ساعات متواصلة، أفقت منها وقد فتكتْ بي آلامُ رأسي، بعين نصف مفتوحة تحسستُ موضع حقيبتي وتناولت منها أقراص الأسيتامينوفين لأجرع قرصًا ابتعلته بصعوبة، كنت قد أحسست بحمى ارتعش لها جسدي النحيل، ذابلة وتعيسة، نظرت لسقفي المتشقق لبضع ثوان حتى نفضت بشاعة المنظر سريعًا والتفت لتلتقي عيناي بالتوليبة الصفراء على حافة السرير التي أهدانيها طفل في أولى صباحات هذا اليوم وقد ردَّد كلمة القَدَر كثيرًا، جاهدت نفسي لإمساكها بيد غير التي أسندت بها رأسي المحموم، بانت عني ابتسامة طعمها حلو ومر، أوقفها متشنجةً دويُّ صرخة اهتز لها سريري البائس واخترقت طبقات دماغي الأعمق، كانت أمي الأربعينية، ربَّةُ المنزل المتهتك قد عادت لتوها من جولةِ نميمةٍ مع بائعات الخضار في السوق الشعبي البعيد.

قد نادت بصوت رنَّان أسماء ثلاثٍ من أَخَواتي؛ كاثي، ماري، سارا، لم يكن اسمي من بينهن لكنني قد قاومت إنهاكي حتى نزلت أحمل التوليبة فناديت بصوت مرتعش:

- أمي، هل أنتِ هنا!

لم أسمع أي استجابة فكررت:

– هل أنتِ هنا أمي؟

وصلتُ أجرُّ أقدامي حتى منتصف البيت ذي الجو الرطب ورائحة العفونة لأجد العائلةَ وقد تجمعت على المنضدة ذات الثلاثة أرجل يتناولون حساء الفول. اتسعت عيناي الناعسة فقلتُ وقد أشرعتُ ذراعَيَّ على تعب:

– حسنا، إذن جميعكم هنا، طبتم مساء أحبتي.

دَرَّتْ رائحة الحساء لُعابًا من فمي الجاف حتى اقتربتُ لأتخذ مكانًا بينهم، أوقفتني إشارة حازمة من يد أمي:

– توقفي، هذا الحساء بالكاد يكفينا، يمكنك تدبر أمرك.

كرصاصة اخترقت أذني وشَرْخ أصاب قلبي سمعتُه وحدي، تقهقرت بسرعة أقرب للبطء.. فقلت:

– لقد تكرر هذا الموقف إذن.. لقد تكررت هذه اللعنة!

وانطلقتُ كمن أصابه مَسّ شيطاني فالتحقت بغرفتي الكئيبة، انفجرت بالبكاء ودسست فمي في منتصف الوسادة الصماء بلا لون وبدأت صراخًا مكتومًا كحِمَمٍ بركانية تشتعل وتنطفئ في دورة لا متناهية.

هناك بالأسفل وعلى ذات المنضدة التي لم يحرك فيها أحد ساكنًا، جاء صوت ماري الأخت الوسطى بعد الرتيبة كاثي ضعيفًا وخائفًا من ثورة غضب لن يستطيع أحد إيقافها:

- لِمَ تفعلين هذا؟ لِمَ؟!

وانطلقتْ تاركة طبق حسائها خلفها سامعةً وابلًا من جَلجلة الملاعق والرذاذ المنبعث من فم أمنا التي انهالت بالشتائم علينا دون استثناء:

- اللعنة عليكم جميعًا.. فليحطمكم الرب.

طالت موجة الغضب الجميع فتفرقوا كفئران هاربة لكل مكان، بينما كنت قد انزويت كشرنقة في فراشي ،أفرغت لِتْرات من الدمع في وسادتي خلال نصف ساعة لأقوم رغم إعيائي أركض عبر السلم الصدئ فأخرج من منزل القساة هذا دون وجهة أعرفها!

***

روكا
الهروب

كانت الشمس قد غطست في حِضن الأفق السماوي مخلِّفة وراءها لوحة أبدعتْها يدُ الإله، مشهد الغروب بألوانه النارية الحميمة كان يُحيي بداخلي حياة كتمت أنفاسها روائح العفونة، أعشاش العناكب تحت سقف المنزل، وعتمة قد اكتسى بها كما لو كان ضريرًا. سِرت على غير هُدًى، أتامل السماء تارة وأشهق عطر المارِّين تارة أخرى، في شيء أرغَمني على إكمال المسير، سِرْت بهزل واضح عشرات الأمتار، مررت بفروع أعظم متاجر الماركات العالمية في قرننا "Neiman marcus، Bottage veneta " آخرها كان Louis vitton لمحت عبر زجاجه اللامع بإنارة براقة سيدةً أنيقةً بشعرها الأشقر القصير كـــــــــــ " كارلي كلوس " وزي رسمي يوحي بقدسية المكان، تُفاضل بأناملها الناعمة بين حقيبتَيْ يَدٍ لسيدة تؤمئ برأسها على كل كلمة تفوهت بها السيدة الأولى بسعادة.

أراحني لثوانٍ ما رأيته للتو، لا زلت أحب في الآخرين سعادتهم، كما لو أنها تنتقل إليَّ بلا وسيلة، تُشعرني بأنني خفيفة من كل ثِقَل، لم يكن هذا المشهد غريبًا عني ولم أكن أشعر أن الحقيبة بذاتها هي التي منحتني الشعور اللذيذ منذ بُرهة، إنما غِبطةٌ مِن فارِقِ الحال في حينه، أنا تعيسة

كئيبة قد هربتُ من المنزل لِأَمَدٍ لن يطول وأخرى تبتاع من متجر عالمي ربما تتحضَّر لحفلٍ سترتدي له ثوبًا قصيرًا يكشف عن ساقين ممشوقتين يَحضُره روَّاد صفِّ المجتمع الأول التوَّاقين للإثارة على الدوام.

أنهكني التعب، انحنيت بجسدي على حائطٍ بلون الباستيل لمتجر الزهور صاحب قصة القدَر العجيبة التي اختلقها الطفل صبيحة اليوم، لم أستسلم لسحر الزهور ولم أقف لأختلق قصة أخرى تذكِّرني لِمَ أنا هنا الآن.

على بعد متر واحد كنت قد اقتربت من صيدلية لم تكن ذات حجم كبير، حدثت نفسي:

– هل عليَّ الدخول؟ الحمى ستقتلني.. لكن.

وبعد تردد استمر دقيقة لم أدخل، لم أكن أحمل مالًا على أية حال، فما كدت أستدير لعودتي من حيث جئتُ حتى اصطدم بي شخص متوسط الطول لم يكن تمييز هيئته سهلًا لي، قد خرج مسرعًا من الباب المنزلق للصيدلية الشبيهة بزقاق فرعي.

– أنا، أنا آسف سيدتي لم أقصد شيئًا، هل أنت بخير؟

رفعت عينيَّ وتحسست يمين رأسي المصاب:

– أنا بخير بخير، سيد.. أوه.. أهذا أنت دكتور جو؟!

– أنتِ روما بالطبع.

ضحكتُ.

– روكا روكا.. سيد نو.

– إذن تعادلنا.

مد يده لبَدْءِ تعارف جديد:

– دكتور جو مالكوم، أربعين عامًا، طبيب نفسي.. مطلَّق منذ زمن لا أذكره وبلا أطفال.. أسوأ عاداتي شرب زجاجة مارتيني يوميًّا على دفعة واحدة وأنتِ!!

فوجئتُ بحجم الحماسة التي أبداها فقابلته بمثلها:

– روكا ميلر، هربت من المنزل وأجول في الطرقات منذ ساعة لكنني سأعود كالعادة.

بعينين ذاهلتين رسم صلاة سريعًا:

– لا بأس روما..لا بأس.. يبدو أن هذا أغرب تعريف عن النفس قد سمعته.. لأجل ذلك هل تمانعين العشاء سويًّا؟ هناك مطعم قريب يقدم ستيك تندرلوين بصلصة الكمأة، شرائح اللحم المشوية بصلصة البيستو وستيك لحم البقر بصلصة الفلفل الأسود الكريمية.

هززت رأسي بابتسامة وبيد أخفت قرقرة بطني:

– إن كان سيقدم ستيك تندرلوين يسرني ذلك.

***

ساندرا

السادسة وخمس دقائق

تبقَّى على إغلاق بثي الأسبوعي على موقع التواصل الاجتماعي انستجرام خمس دقائق، كنت قد استعرضت فيه مشكلةً أثارت الرأي العام العربي بلا هوادة، لطفلة بعمر تسع سنوات تعرضت للتعذيب والاغتصاب حتى الموت على يد جدها الشيخ السبعيني باتفاق مع الأم، لم تكن قضية كهذه لتمرَّ عني سريعًا دون اهتمام لكثرة الخائضين فيها، فكنت وعلى الدوام ذات تحليل ورأي مختلف يستقطب آلاف المتابعين والإعجابات في خانة التعليقات.

- أنتِ امراة بألف رجل.

- مصداقيتكِ تتخطى الحدود.

- أرجوك لا تتوقفي عن الحديث.. أنت صوت المظلومين.. تحياتي لجرأتك.

فأقول:

- شكرًا لكم جميعًا.. ألقاكم الأسبوع القادم في ذات التوقيت.. أحبكم أحبكم.

بسبَّابتي أغلقت كاميرا الهاتف وقرص الإنارة المشعّ، ومنحت لشَعري الحريري بلونه الأشقر البلاتيني فرصةَ التنفس من جديد بعد أن عقدتُه لساعة كاملة، تلاعبت به بكلتا يديَّ وناديت بإنجليزية متمكنة:

I'm finished, my love..where r u!

جاء وقد أنهى اتصالًا فطبع قُبلة على جبيني:

– أنا هنا عزيزتي، هل انتهيتِ؟

– نعم منذ لحظات، لقد أثارت هذه القضية برمَّتها أعصابي، شيء مقزز لا ينفك بعض المرضى من بني البشر منذ الأزل ارتكابه، انتهاك الإنسان لإنسان مثله، مستغِلًّا به ضعفًا أو مرضًا أو صغر سن أو قرابة. احتدَّ صوتي:

– كيف تجرأ هذا الجد على فعلته؟! أي إثارة لغريزته الحيوانية قدَّمتها طفلة بعمرها لم يكتمل من نموها شيء بعد؟ كيف استدرجها كذئب لينزع عنها براءتها؟ لقد سمع صُراخها ولم يُبالِ، نزفت كالمذبوحة ولم يُبالِ!!

رَبَّت بيده السليمة على كتفي:

– اهدئي عزيزتي، لستُ أبرر لكنَّ هذا شيء يحدث في كل مكان،

بعض الناس ضعاف النفوس، فلا يردعهم أيُّ شيء، لا ديانات، لا آيات، لا تعاليم شيوخ أو قساوسة وبطبيعة الحال أيضًا، لا قوانين.

اتسعت حدقتا عينَيَّ فعقَّبت بنظرة غاضبة:

– هل قلتَ ضعاف النفوس؟! بل مجرمين، هم مجرمون لا محالة، والأم، كيف كان لها أن تُخفِيَ شيئًا كهذا؟! كيف استطاعت أن تكون شريكة في الجريمة؟ أتلك أم؟! تلك؟!

– صدقيني.. لا أحد مثلك.

– أصدقك، لكنني لستُ أُمًّا يا ستيف...لستُ أمًّا.

***

د. جو، روكا

كان الطبيب بسيارته الـــــــــ "فورد برونكو" قائدًا ماهرًا؛ قد تفادى طيلة الطريق حوادثَ حتميةً لمشردين وسُكارى بزجاجات Boone's farme يترنحون ويتقيؤون بلا وعي وبضع يائسين يرمون بأنفسهم كي يضعوا حدًّا لحياتهم أمامه، لكن ذلك لم يُثْنِهِ عن وعدِ العشاء لي. بطريقة رومانسية حذقة:

– يَدُكِ أيتها الآنسة الغريبة.

قلت باستغراب:

– لا داعي لأن تكون هكذا.

– لم أفعل شيئًا بعدُ.

فما إن ولجتُ حتى انتابني شعور بالانفصال الآني عن العالم.. هنا أنا لست كما في الخارج. بسؤال مهتم:

– هل يناسبكِ الجلوس هنا؟

– نعم، أحب كوني قرب النوافذ دائمًا.

جملة نكأت تحليلًا نفسيًّا مباشرًا:

– نوافذ! .. دائمًا!.. أراكِ تُحبين العزلة وتأمُّل الحياة عن بعد.

تنهدتُ بحرارة وبيدين تحتكان ببعضهما أنزلتهما أسفل المنضدة:

– لم لا تكون هي؟ حياتي أنا، أن أراها بكل شيء فيها عبر إطار.. لست فَيه.

أغوته البلاغةُ التي وصفتُ بها نفسي للمرة الثانية، فما إن قرر استئناف الحديث بذات السّياق حتى قاطعتُه بإشارة ناعمة من يدي:

– ألن تطلبَ لي شيئًا؟

بعد عشر دقائق كان قد وصل النادل المنضبط بدون عبوس يحمل أطباقنا..

بادرتُ كمن يريد إدراة دفَّة الحوار:

– مَن أنت دكتور جو؟! انتباني فضول ليس بطبعي حيال شخصك اللطيف. انخفض صوتي ويكأن اللطفاء ليس بوسعهم المرور من طريقي..

بتواضع خَجِلٍ دعاه لخلع نظارته من طراز " Ray ban aviator " ليتمتم:

– شكرًا، هذا لطف منك، قد لا أكون هكذا على الدوام لكنك استحققت مني هذا اليوم، وبما أنكِ قد سألتني مَن أنا؟ سأجيب.

كان قد أكمل قَطْعَ شريحة ستيك بصلصة تيرابيك حلوة ومالحة، وعدَّل جلسته ليقول:

– قبل أن أبدأ، هل عليَّ أن أعرِّفك بشخصي كطبيب يقضي معظم ساعاته الأربعة والعشرين في الاستماع لشكاوَى تتولد بطلوع كل شمس أم كإنسان يعيش فترة حرية وتِيهِ؟

– وما الفرق؟!

أجاب ضاحكًا فبانت أسنانه النظيفة:

– الفرق شاسع قطعًا، كفرق حيوات كلِّ مَن في هذه الصالة العريقة.

بنبرة ناعمة:

– إذن.. فليكن مالكوم التائه.

– حسنًا وكبداية، أنا شخص حر.. دائمًا ما كنت حرًّا.. وشعوري بالحرية المتطلِّب هذا كان يزيد بجشع ونَهَم لا يتوقفان.. لم أكن يومًا حبيسَ شيء أو عبدًا له.. وكأني أريد التهام حياتي التهامًا.. وكلما التهمت منها زاد جوعي.. وحتى لا تُسيئي الظن بي، فأنا لست منفلتًا، إنما فقط حر، هل تفهمينني؟

أخفيت فَهمي المحدود لما قاله:

– أفهمكَ ولكن.. ما علاقة هذا بالتيه؟ أهذا ما يدور في ذهنك

الآن؟

– سأجعل الأمر سهلًا؛ قبل عدة أعوام من الآن، كنتُ قد التقيت بزوجتي السابقة.. كانت برَّاقة بشكل لا يُصدَّق.. مذهلة، مثيرة، ما إن تطأ قدماها أيَّما مكان، أيَّما مكان فعلًا، حتى تبدو كحورية، شفافة بين إنسيات من طين، ملفتة فلا أرى سواها.. ومن هنا، بدأت المشكلة.

بانتباه مشدود أكثر، وعلى وقع أيقونة جورج مايكل الغنائية careless whisper التي أضفت مَنْحًى سينمائيًّا لحواره معي قلتُ:

– هلا أكملت؟

ارتشف رشفة أخرى من كأس المارتيني، وكأنما أراد أن يُنعش ذِكرى تَعُودُ لسنوات مضت:

– كلُّ ما فيَّ كان يحبها؛ قلبي، عيني، جوارحي، ملابسي، كانت قد تملَّكتني بكاملي!

وكأنما حلَّ به دُوار مفاجيء، بدأ يمسح جبينه، يَعُبُّ أنفاسًا متقطعة.. أثارت فيَّ فَزَعًا.

– هل نتوقف الآن؟ إن كان هذا سوف...

– لن يفعل شيئًا، لا تقلقي، أين توقفتُ؟ آه.. نعم.. لقد تملَّكتْني فلم يَبْقَ مني شيء، ويبدو أن هذا لم يكن كافيًا، أو زائدًا عن الحاجة، لم

تمنح نفسها فرصة لتعرف لمَ تغيرتْ، نفثَتْني كدخان دافيدوف، نفضتني كغبار كأني لم أكن، حقًّا لم أعَد فَهْم حقيقة الأشياء. رغم أني حسبت نفسي عالِمًا بنفوس البشر، بحكم انغماسي في نفوسهم لسنوات وسنوات، لكن أتعلمين أيتها الغريبة السامعة بإنصات، كنتُ سعيدًا ، وقد كنتُ أعلم أنني بتُّ أسيرًا لها، لكنني كنت سعيدًا، هي أشبعت ذاك الجوع الذي أخبرتكِ عنه قبلًا، أمسكت بحريتي الجامحة بكلتا يديها، لم أكن ضعيفًا، أو كمن يسعد بسادية الشريك، كنت فقط أسيرًا مُحِبًّا وحرًّا.. لذا ورغم كل شيء، شعرت وفي لحظة صحوة أكيدة أنني أفضِّلُ جوع حريتي، سمحت لأنانيةٍ دخيلةٍ أن تجد لها بيئة خصبة كانت هي بلدُها المنشأ، لتنمو وتعشش بداخلي، أمدتني بكامل الثقة لأتحمل آلام آلة الوشم على ساعِدي، إما أنا أو أنا، أَعَدْتُها غريبةً، لا تثير فيَّ أدنى شعور. تساوت مع غيرها فلم تعد حورية شفافة،حتى وإن كانت على بعد طاولتين من هنا، ترتدي فستانًا أسود كنتُ أهديتُها إياه قد كشف عن خمس شاماتٍ تراصَّت على ظهرها المكشوف كمجموعة نَجمية، يغازلها شخص لئيم بِقُرطٍ واحدٍ لم يحبها يومًا.

استدرت خلفي بذهول لأرى ذلك المشهد الدرامي؛ رأيت سيدة ثلاثينية أشدَّ جمالًا مما وصفها، مكتملة.. فارعة.. تحبس الأنفاس، لكن، بصورة في عيني مشوهة.

– عجبًا! كيف، كيف أمكنها ذلك؟

بحاجب مرفوع وشفاه مزمومة أردف بعجز بان في رده:

– هذا ما جعلني تائهًا، استعدت حريتي ولكنني تائه دون نفسي التي كنتُها سابقًا دونها، على أية حال أنا معافًى، تعافيتُ منها منذ زمن، هناك أشياء يجب أن تُبتَر مرة واحدة وللأبد، وها أنا أجلس قبالتك لأسرد أشياء أمست من الماضي بلا ألم وأنتِ؟

– أنا ماذا؟

وهو يمد ببطاقته التعريفية بها عنوان مكتبه:

– هل مِن شيء تودين قوله؟

ما إن أمسكتُ بطاقته بكلتا يديَّ حتى بدت جروحي واضحة لديه فأعرض عن أن يتعمق بالسؤال أكثر خشيةَ تعكير صفوي، فأجبت كمن فهمتُه دون أن ينطق:

– سيحين وقت ليس ببعيد.. قد أخبرك فيه بكل شيء.. مدينةٌ لك بالشكر على هذه الليلة عزيزي مالكوم، أما الآن وقد انتهت فترة الهروب، عليَّ الذهاب.

***

حديث الذات

كنت نادرًا ما أحظى بليلة كتلك، لم يحدث وأن كشف شخص نفسه

أمامي بهذه السرعة، كنت وقد عاود المطر بالهطول من جديد تركت لنفسي متعة الشعور بتراقص قطراته على وجهي عبر نافذة السيارة التي أقلتني من حيث كنت لأفكر في مجريات هذا اليوم، أعدتُ كلماتِ الطبيب في رأسي مرارًا، بانت كمن أنطقها على مسمع السائق حليقِ الرأس الذي ما انفكَّ ينظر في مرآته منبهرًا بجمالي الهزيل وبشعر فاحم حاولتُ رفعه خلف أذني في حركة أثارته بغير قصد، غير آبهٍ بما لو اصطدم بعمود إنارة أو بسيدة مُسنة قد التزمت بخطوط ممر المشاة في عبورها، أعجبني وصف نفسه بالحر، كيف أعاد إحياء نفسه كعُقاب من رماده وحلَّ سلاسل السطوة عنه؟ تساءلتُ إن كان حبه لم يكن كافيًا أو ربما كما سبق وصفه بأنه زائد عن الحاجة، فإن كان كل الناس قد رفضوا حب مُحبيهم، فبأي شيء يقبلون مَن بعده، ماذا يُغريهم؟ ماذا يريحهم؟ أم تراهم يعلمون أن بهم هشاشة تجاه حب بهذا الحجم، فلا يقوون على حمله وقتًا طويلًا، فيرسون على مَرفأ العاديِّين من الناس، القبيحين منهم، مَن قد لا يمنحونهم أيَّ شيء، بل على العكس من ذلك، مَن يُنقِصون مما عندهم، يأكلون لحومهم ويشربون نخب كؤوسهم على رُفات قلوبهم الناكرة، فلا يحيق سوؤُهم من بعد ذلك إلا بهم وحدهم.

أخرجني عن شرودي صوت سائق التاكسي الأصفر مناديًا كما لو أنه كرر نداءه كتسجيل صوتي:

– ها قد وصلنا يا آنسة، وصلنا، إن أردتِ تفضلي بالنزول أم لديكِ

وجهة أخرى؟

تلعثمت:

– ح، حسنًا، حسنًا؟

ما إن قطعتُ بضع خطوات مسرعة حتى نادَى الشاب الحليق ذو السلسلة الفضية كما لو أنه قرأ داخلي وقد كنت على مقربة من باب منزلي:

– سيدتي، أيًّا ما كنتِ تفكرين به، ستكونين دائمًا بخير، أعدك بهذا.

وانطلق بسرعة ريح وصوت محرك هادر أخفى تمتمات التأكيد على كلماته الأخيرة.

– نعم، أنا دائمًا ما سأكون بخير، لا خيار ثانيًا لي.

كنت أعلم أن طفلي ذا الستة أعوام قد غطَّ في نوم منذ ساعتين على الأقل، ولم يشعر حتى بغيابي حتى هذه الساعة كما لم يشعر بأن باب المنزل ولأول مرة لا زال مفتوحًا يرحب باللصوص والثُّمالَى المخطئين لعناوينهم، وأنا التى تحسست طريقي فصعدت كقطة بلا صوت لغرفتي الفسيحة برائحة الأوركيد الأسود والغارقة في العتمة لأخلع عني ذكرى كمِلح على جُرح عميق قد اجتاحتني بلا رأفة صبيحة يوم ماطر كنت أستعد فيه لتحضير فطيرة اليقطين بالسكر البني والزنجبيل

اللاذع، التي ما انفك طفلي ذو صف الأسنان اللبنية المخلوعة يطلبها، ليَهُبَّ بعدها في كل مرة لتقبيلي بشفاه غطَّاها فتات الفطيرة التي ما تركها لتبرد كعادته، ممتنًّا لحب كان لصغر سنه يشعر ببريقه ولمعانه في عيني، كان يمسه ويشمه، لكن كانت للذكرى المريرة سطوةُ اليد العليا لإفساد ما دوَّنته على مذكرة التخطيط الإلكترونية على هاتفي الذكي من أشياء هامة سأقوم بها خلال هذا اليوم، سأُقِلُّ أوليفر من بعد ساعات مدرسته لحضور دروس تعليم العزف على "الساكسفون" التي لطالما هِمْتُ عشقًا بكل عازفيه؛ "جون كولتران، تشارلي باركر، كيني جي". كانت تفعل نقرات أصابعهم على تلك الثقوب فعل إفراغ عبوة كاملة من نبيذ تشاردونيه بمذاق الفواكه الاستوائية والڤانيليا أثناء مشاهدة سلسلة أفلام Breaking down مُحدِثًا نوبةَ انتشاء ما عرفتُها أبدًا ولاء لذلك الوعد الذي قطعته لفلذة كبدي منذ الدقيقة الأولى التي نام فيها فوق صدري، بعد عملية ولادة عسيرة لم يهدأ فيها المخاض لأسبوع كامل كنت فيها وحيدة أصارع آلامي وأبتلع صرخاتي بلا أحد، لا أم ، لا أب، لا إخوة، لا زوج، همستُ حينها في أذنه الصغيرة كبَتَلَة ورد:

– لأجلِكَ وحدكَ يا صغيري، لا كحول، لا سجائر، لا عقاقير، لم أجرب أيًّا منها قبلًا، ولن أفعل، وأيضًا لا رجال، كلانا وحدنا، سأحيا لك وأفنى لأجلك، ستجثو الحياة بين يديك، لن تجوع ولن تَعرَى، لن تعرف الخوف قَطُّ، لن تعرف البرد قط، لن تعرف الحر قط، أنا أمانُكَ

ومأمنك، ستأتيك الأشياء يا صغيري بلا طلب، بلا سبب، من الآن حيث أنت بطول دُمية وبشعر ذهبي صفَّفه رحمي للأمام بشكل طبيعي، ولونك الأشهب، وعيناك اللتان لا تزالان ترمشان كنبض قلبك، إلى ما لا نهاية، إلى أن يتخطى طولك طولي.

ليَبدر منه صوت حريري وكأنما أعجبه الوعد، فأطمأن ونام. كنت دوَّنت بالخط بالعريض أنني لن أفوِّت البث المباشر لساندرا الساعة الخامسة مساء، كما وقد ضبطت تنبيها بإشعارات لن تتوقف تذكرني به. كنت مولعة بالقضايا التي تثيرها، والتي كانت في معظمها تدور في محيط واحد؛ جرائم العائلة، لذا لم يكن ليتسنَّى لي أن أقوم بأي شيء يكسر هذا الالتزام والذي غالبًا ما كان يثير فيَّ استياءً وأوجاعًا وقَيئًا وذكريات حاولت فيها جاهدة محوها وتناسيها على الأقل أمام صغيري، لكنني كنتُ أعتبر ذلك جزءًا من الحل؛ إذ أغمس نفسي مع كل قضية في ذكرياتي حدَّ الاختناق فأتقيأ منها ما لم أستطع تناسِيَه عبر السنين، كتعويض عن أي حبوب مهدئة وكَشط ليَدَيَّ بأظافري الحادة كسكين لأظهر وبصورة السيدة الشبيهة بالنعيم لطفلي الذي ما رأى مني بقصد مني يومًا إلا الجمال، لكن وبقدر ما شكَّلته هذه البثوث لي من أهمية كمَن يطلق النار على نفسه في كل مرة تأكد فيها بأنه ما زال حيًّا، فهي على النقيض تمامًا بالنسبة لساندرا، كانت تشكِّل لها الأدرينالين الذي يُشعل حياتها، يحفزها، يملؤها، إن لم يكن بشكل كلي وإنما يملؤها،

يذكِّرها بأنها في حرب لا تعرف أي هدنة تجاه الظلم في أي مكان وأي زمان تحديدًا إن كان الظلم يضرب بجبروته على أطفال لا حول لهم ولا قوة، حرب لا تَقِلُّ ضراوة عن التي تخوضها لإنجاب طفل.

***

في منزلي الرَّحْب

بعد ست ساعات شعرت بأنني قد أخذت من النوم ما يكفيني، كانت من إحدى الليالي التي ما إن أضع فيها رأسي على وسادتي حتى أنام دونما تفكير، لم أُرِدِ النهوضَ بسرعة، أردت الاحتفاظ بإحساس الراحة والكسل اللذيذين لفترة أطول، تقلبت بحذر؛ خشيةَ استيقاظ نشط يفسد هذا الشعور الخدِر، كانت الغرفة لا تزال غارقة في عتمتها إلا من إضاءة خافتة لجهاز التنبيه حاولت إخفاءه طيلة الليل بوشاحي، غرست نفسي في فراشي أكثر، تلوَّيْت، تمطَّيْت بذراعيَّ، احتضنت فروَ وسادتي، نظرت للسقف، كان قد بدأ شريط أحداث أمسي يعود، ليظهر أمامي قبيل طلوع شمس النهار الجديدة، أردت نفض ما حدث لكنني تساءلتُ: ما الذي حدث؟ لم عادت لي تلك الذكرى المشينة؟ بيت عفن بسلم صدئ، رائحة حساء الفول لا زلت أذكرها، الحُمَّى والنداء، أمي بنظراتها القاسية وصوتٍ سَمْتُه الأذى، لم تسكب لي الطعام، أبي كان صامتًا، الصمت عادته في كل شيء، كان سلبيًّا باردًا كثلج، إخوتي في

الدم أكملوا طعامهم كالنعام بل لم يَعْنِ لهم الأمرُ شيئًا، لم يستنكروه، فَلِمَ عادت إذن؟ أَلَمْ أكن قد حبست كل شيء؟ أمتُّ كل شيء؟ من أين عُدتُ بالأمس؟ في حقيقة الأمر أين كنت؟! تحسست جبيني، كانت حرارتي قد اعتدلت بينما شعري تشابكت خيوطه وحلقي كان جافًّا كما لو امتلأ بالتراب، اعتدلت، كان ظهري قد تيبَّس، كدت أسمع فقراته تستغيث، أخذت أتمطى يمينًا ويسارًا، هبطت عن سريري بخُطًى متيبسة قاومتُها، لم أحب فكرة الإعياء يومًا، كنت أطردها بشراسة، ليس لأجلي فقط إنما لأجل ذاك الطفل النائم في الغرفة الملاصقة لغرفتي، لن يراني مريضة، مكسورة، جريحة، أنا امراة في عينيه الزرقاوَيْن خارقة، ملائكية، بلا شوائب.

سرت حتى وصلت غرفة صغيري، أردت فتح الباب لكنني تراجعت، أحب أن يحظى بنوم هانئ، فلا زال الوقت مبكرًا، ربما عليَّ أن أستحمَّ، فكرت في نفسي، بل مؤكدًا، أنا رَثَّة بشكل لا يُصدّق، أخافتني صورتي كشبح في المرآة. كانت المياه شديدة البرودة حينما دسست نفسي في حوض استحمامي الرخامي الأبيض بخطوط العسل، أحسست بالمياه تكشِط جلدي، فلم أبالِ، أردت كما لو أريد التجمد، شيئًا يوقف غليان أفكاري التي ما فارقتني منذ الأمس وFly me to the moon تعرف كيف تفعل هذا جيدًا، لم أكن بهذا القدر من القسوة على نفسي قبلًا، كنت أضبط حرارة المياه فتنساب عليَّ كنهر من لبن، عرفت

كيف أعتني بنفسي جيدًا، بل أدللها، أغرق ذاتي بشتى العطور "غيرلان شاليمار، ديور سوڤاج، توم فورد" ثم ما ألبث أن أنتهي حتى ينافس جمالي نفسه في كل مرة، فأبدو بجمال لا تعدو به السنين، غضة، نضرة، سحابية، حريرية، روكا القديمة تركتُها هناك، على سرير الولادة، تبددت مع صرخاتي التي لم يسمعها أحد سواي. أنعشتني البرودة، خلقتني من جديد، أعادتني كما كنت قبل مساء الأمس، ليخرج صوت من خلف الباب:

– ماما، أين أنت؟

– أنا هنا يا ملاكي، هيا امنحني عناقًا، هيا هيا... عناقا كبيرًا.. كبيرًا جدًّا.

حملتُه بين يدي، درت به، عانقته كثيرًا، مسَّدت شعره بكفَّيَّ، لم ينزعج طفلي بل كان معتادا على افتتاح الصباح على هذا النحو. بيد تعانقني وكف تمسح على وجنتي يقول:

– أنا سعيد، س، سعيد؛ لأنك أمي.

لم أكن يومًا سعيدة كهذا الصباح، بدا كتلك الطفلة في midtown فبكيت، بكيت أكثر، درت به كثيرًا، قذفته في الجو عاليًا والتقطته، مرة، اثنتين، ثلاث مرات.

***

السابعة وثلاثون دقيقة

حديقة منزل السيدة ميلر

رفعتُ عينيَّ صوب السماء، كانت ساكنة هادئة، إلا من بضع قطرات أحبها، ذاك طقسي، لا تروقني سماء بلا غيم، لا تغريني زرقة صماء، فكان ومن جملة ما يثير تساؤلاتي: كيف يكرهون هذا الفصل الملكيَّ؟! مَن الذي يستبدل رائحة المطر بإفرازت العرق؟! ومَن التي تستبدل دفئًا مُسكِرًا تحت طبقات الملابس بحروق الشمس فتُحيلها للوحة ألوان ترابية، امتننتُ لهذه النعم، ابتسمت، صليت، أوقفت من بعدها سيارة أجرة وانطلقت.

- صباح الخير.. إلى أين سيدتي؟

تصاعد من فمي البخار:

- صباح الخير فعلًا، عنواني المعتاد، سيد واتسون.

أعرف هذا السائق جيدًا، البدين بغير ترهُّل، رتيب الشعر، أشيب لا يحب الأصباغ، صوته كحكيم، كان يُقلُّني في كل المرات التي حملت فيها صناديق الكتب الجديدة، يا لِلمصادفة! أخبره أن يعاملها برفق، فلا تتمزق أو تبتل، دعاه ذلك ذات مرة للسؤال بنبرة ساخرة:

- ما الذي قد يُحدثه مزقٌ في علبة كرتونية؟ ليس الأمر بهذا السوء.

أجبته بنبرة يقينية:

- لا أحبذ خدش عيني بمشهد قبيح، بإرادتي على الأقل، لا مكان للقبح في حياتي، ألا تتفق معي سيد واتسون؟

ضاحكًا:

- لا أجرؤ إلا على أن أتَّفق، مدام ميلر.

حدثت نفسي وأنا أُعَدِّل من جلستي جوار النافذة:

- ما هَمَّني إن رأى الغير ما أقوله تافهًا، على الأقل أنا لا أرتضي القُبح.

وضعتُ ما بحوزتي؛ حقيبةَ ظهر دسست فيها بضع ملفات وقارورةَ مياه بلاستيكية كُتب عليها بخط متكسر: "هذه لكِ أمي، لا تَنْسَي الشرب"، رُسِم كتوقيع تحتها صورةُ قلب لونه صغيري بلون أصفرَ تخطى حدوده بخربشات تضحكني في كل مرة أراها.

أنا لا أزال ممسكةً بهاتف الغريب، كان صامتًا كحجر، لم ترد أي رسائل منذ البارحة، ما عادت مدام دين تتصل أو تُهدد، شعرت لثانية فيما لو كنت أوقعت نفسي في ورطة، ماذا لو لحق بي ضررٌ ما جرَّاء إقحام ذاتي في شيء لا علاقة لي به. ما أردت للوساوس أن تلوث شعوري الأول، هناك ما يتعلَّق بهذه الصدفة الغريبة، تمتمت بحركة شفاه

استطاع قراءتها الفضولي واتسون كما لو أريد الإقتناع بما أفعله.

– لن يحدث شيء، هو مجرد هاتف ذكي، أعرف هيئة مالكه، على كل حال لا يبدو مجرمًا، أو متحرشًا أو سارقَ أعضاء، يبدو مستقيماً على أغلب الظن.

نفضت هذياني وفتحت تطبيق الرسائل، تحققت من العنوان وبصوت أكثر حزمًا من تمتماتي السابقة غطى على صوت مذيع النشرة الجوية " cantore jim ":

– إلى wells fargo سيد واتسون، على الفور.

***

توم

قبل أربع سنوات

أسمع خطاه يقترب، يقترب أكثر، عيناي تزوغان، أرتعش، فأنكفئ على نفسي في زاوية الغرفة يداي تضمان ركبتَيَّ، أعود للوراء، أريد الاختفاء، ليس خلفي سوى الجدار، حرارتي تغلي، أرتعش كطير ذبيح، يفتح الباب، يكاد قلبي يتوقف، بدا عملاقًا ربما لأنني تقزَّمت فجأة، بيده عصا سميكة، وحقنة بطول عشرة سنتيمترات ملأها بمادة مخدِّرة، ليست هذه المرة الأولى، حاول معي مرارًا، استعاض عن يديه هذه المرة بالعصا، كنت أرفض الانصياع له، وعرفت في الحال نتيجة الرفض، ضربة قول لا، هذا أسبوعي الثاني حبيس غرفتي النَّتِنة، أمرني بصرخة هزت جوارحي: "أعطني يدك" كانت يَدِي ثقيلة يابسة متخشبة، ولكنني امتثلت بسرعة برق أعجبَتْه، بانت لإثرها أسنانه المتآكلة ورائحة فمه كالجثة المتحللة في البراري، راح يضغط فوق ذراعي، تمزقت أوردتي، غرز ناب إبرته في وريدي، كتمت صُراخي وابتلعت ارتعاشي، شقت ابتسامته وجهه، رأيتها، مال رأسي للوراء وغابت صورته عن عيني، وبصوت تردَّدَ صداه مضخَّمًا في أذني: - ولدي المطيع.

***

ساندرا

أمام مرآتي العمودية الطويلة بحوافِّها المعدِنية ولمعانها كالشاشات شديدة الوضوح، أكملت ارتداء ملابسي، فستان أسود بأكمام طويلة مزمومة اخترته بلا نقوش، وحزام عريض رَسَا على خصري النحيف لم يُخفِ تحته سوى معدتي وأمعائي، وقفت دقائقَ أخرى فوق الثلاثين السابقة، أتأمل هيئتي، ألتفُّ يمينًا ويسارًا، أنظر من فوق كتفي، بأطراف أصابعي أعيد رسم أحمر شفاهي الغني بالڤيتامينات بلون مكثف وترطيب يدوم طويلًا؛ إحدى اختراعات ديور المذهلة، أضبط كل شيء كما لو كان لديَّ جلسة تصوير، ظننت في نفسي الكمال حتى مررت بيدي على بطني الخاوي، هي سنوات لم ينتفخ فيها، حتى لا أكاد أنظر لأدوية تحفيز البويضات، وأمرُّ على وصفات أمي وجدتي الأسطورية لتحديد جنس الجنين دونما اهتمام.

سأنزل بعد خمس دقائق كافية لأتخيله يكبر بكل مراحله، لا آبَهُ لأبواق السيارة التي يطلقها عزيزي ستيڤ، أعيد ظهري للوراء، أسير مثلها، تلك مَن ينام بداخلها الجنين ويتقلب ويرفس بقدميه، ابتسمتُ لمخيلتي النشطة، لم أُرِد أن أصبح درامية في هذا اليوم تحديدًا، لا زال أمامي يومًا طويلًا في دارِ الأيتام العريقة؛ قد أسستْها سيدة ڤيكتورية، أعددت لهذا

اليوم طويلًا، احتفالًا بكل مواليد هذا الشهر من العام، كانوا تسعة أطفال أصغرهم ماغي، آخر أطفال الدار وصولًا، عمرها عامان لا أكثر، ابنة لأم عشرينية، بدت من خلال صورها في الصحف الصباحية أنها تعرف ميعاد موتها، لا أعلم، هكذا بدت لي، عثر عليها جثة في مسبح منزلها، ويقول جهاز الشرطة: إن وقعة الوفاة ليست عادية أبدًا، ويُرَجَّح أنها جريمة مدبَّرة أو واقعة انتحار ناتجة عن تشخيص مسبق باكتئاب حاد، لم تشهد فيها جليسة الطفلة بأي شيء، بل ادَّعت أنها في يوم وفاتها تحديدًا كانت في رحلة مع صديقها عامل محطة الوقود على شواطئ نورث كارولينا وتركت الطفلة مع والدتها، أذكر أنني تداولت هذه القصة عبر بثوثي المباشرة لأسبوعين متتالين، علمت خلالها أن الطفلة أُودعت في الدار بشكل عاجل فكنتُ أول الزائرين لها. مَسَّني حينها شيء لم أفهمه، كانت موضوعة على سريرها تلعب بإحدى الدُّمى فتمتمتْ بكلام متقطع كررته عشرات المرات فملأ فمها لعابًا:

– ما ما، ما ما، ما ما، ما ما، ما ما.

بدت لي تهذي، وربما لا، وربما لم تَعِ بعد حقيقة الفراق الأبدي بينهما. أصبحت أبواق السيارة مزعجة بشكلَ لا يطاق، صممت أذني وحملت أكياس تسع هدايا وحدي وانطلقت.

***

روكا، لورانس

Wells fargo

قلت في نفسي: ها قد حضرت.

نزلت من سيارة الحكيم البدين بأسرع مما تخوفت، أقف الآن قبالة مبنى لم أُحْصِ عدد طوابقه، ذي واجهة توحي بالبهجة، نوافذه من الزجاج الأزرَق العاكس وكأنه ابن السماوات، كان يلمع، يعطي انطباعًا بمكان حي لا يفتر، لم تكن شققه سكنية، كانت تعج بالمؤسسات، عيادات الأسنان، مراكز التجميل وزراعة الشعر، المراكز الحقوقية والمكتبات، وعدد لا نهائي من راكبي السلالم وطالبي المصاعد، تأكدت من عنواني؛ شقة رقم ١٩، المصاعد تختنق، آثرت الصعود على قدمي، رمقني رجل مُسِنّ ذو بنية قوية كمحارب قديم، علَّه سخر من صوت لهاثي.

- شابات من ورق، لا عجب نحن في زمن الورق.

جاملته بابتسامة لم أُرِدْها باردة لهذا الساموراي وأكملت لهاثي، رحت أعد الدرجات، الثالثة، الرابعة، استرحت قرابة عشرين مرة قبل أن أصل، ها هي الشقة تسعة عشر، عذرًا لساني، تبًّا لك.

أردت ركل الباب بقدمي، لكن لم تكن لتغضبني بضع سلالم. كان الباب مفتوحا، لا أعلم ما تاريخي مع الأبواب المفتوحة، أنا الآن في منزل السيد الغريب لورانس، عليَّ أن أرفع صوتي بالنداء.

– سيد لورانس دين، سيد لورانس.. هل أنت هنا؟

– أنا هنا مدام روكا.

فاجأتني معرفته بي دون أن يراني، هل كان ينتظرني؟ هل لم أُسمعه جيدًا؟! ربما.

– لا لا، لن أبدو غبية، سأعيد هاتفه وأعود في الحال، الأمر في غاية البساطة، وسأخبره برسائل مدام...

قاطعني ظهوره أمامي، وقف الوقت، تجمد. كان مشعًا، دافئًا، لا أعلم في أي بحر قد رمى جموده، همومه، عينيه الزجاجيتين، تلعثمت وأعتقد أنني بدوت غبية بشكل صريح!

– مرحبا، أنا روكا ميلر، وهاك هاتفك سيد دين.

لم يمد يده للهاتف، لم يندهش أنه بحوزتي، ربما شخص مثله لم يدرك اختفاء هاتفه بعد.

– مرحبا آنسة، عذرًا، مدام روكا.. أشكرك على أمانتك، لكن لا حاجة لي به.

ها قد عاد لبروده من جديد.. بعصبية حاولت كبح جماحها:

– ماذا؟! لقد قمتُ بإلغاء كافة مهامي لهذا اليوم، لم أذهب لعملي وقطعت طريقًا طويلًا للوصول الى هذا المكان الشبيه بالمتحف، وصعدت السلالم على قدمي فتورمت وماذا؟! لا تريد هاتفك؟!

– مع ذلك، سعدت برؤيتك.. هل أحضر لك شرابًا؟

ها هو يحاول امتصاص غضبي، لم أكن غاضبة أبدًا، دربت نفسي منذ زمن على كل أنواع البشر، البُلَهَاء والحمقى، اللامبالين، الأنقياء، والأسوياء، عُبَّاد النار، المرضى والمهووسين، أنصاف المشاهير، اللصوص، هم موجودن في جميع الأزمنة والعصور، يُعكرون صفو المجتمع وصفوي، لكن هم موجودن بطبيعة الحال.

عاد يحمل بيديه كأسين:

– إليكِ كابيرنيه سوفيجنون.

هززت برأسي بأسف:

– آسفة.. لا مشروبات كحولية على الإطلاق، وأيضًا هل مِن أحد يرغب في تغييب وعيه في أولى ساعات الصباح؟!

أخفض عينيه باستغراب ليرفع كأس مشروبه في وجهي، ويضع الآخر على مكتب يعج بملفات على ارتفاع ثلاثين سنتيمترًا، فبدتا أكثر

سحرًا وتوهجًا.

- والآن ماذا؟

قاطعني بحزم لطيف ومِشية استعراضية تجاه شرفته الفسيحة.

- الآن، امنحيني فرصة إنهاء كأسي، لا فائدة من تركه بيدي هكذا.

منحتني استدارته فرصة الانتباه لبعض التفاصيل بشكل أكبر، لم يكن هذا المدعو لورانس كئيبًا متَّشحًا بالسواد، على العكس، كان مريحًا مبهجًا، ارتدى قميصًا أزرقَ بكُمٍّ قصير برزت منها عضلاته الناتئة أكثر مما كان يخفيه بمعطفه الأسود، واستبدل البنطال بسروال قصير كشف عن ساقين رياضيتين تنافسان لاعب التنس الشهير روجر فيدرر في الصلابة، له هالة رجل عازف متوحد، أو فنان يحيط به السكون اللذيذ.

كمكان سكناه، شقة متوسطة المساحة، اتخذ منها مكتبًا يُطل على شرفة ما خلت إلا من أرائك خشبية زودت بوسائد مقاومة للطقس يمارس فيه مهنته التي وعلى الأرجح قد ملَّ منها جرَّاء أكوام الغبار التي غطت كومة الملفات فوقه، لاحظت ذلك فور دخولي، أعترف بامتلاكي ميزة لمح الأشياء بسرعة كهاتف الرجل الذي ما زال بيميني، لم يلحظ رجل الشرفة ابتسامة الإعجاب بنفسي، أعجبني اختياره لألوان الطلاء التي زادت من بهجة المكان ورُقِيّه، طلاء زيتي لامع من مزيج اللونين الأزرق والأبيض أظهرت الجدران بمظهر قد عكس السماوات في

شقته، عُلِّقت عليها لوحات بإطارات مزخرفة منحتني وثوقًا في ذائقة هذا الرجل الفنية، هي عدة لوحات شكلت في تجمعها لوحة واحدة كبيرة بقياس متر واحد عرضًا وطولًا لسيدة بشعر متوسط الطول أشقر ومموج كانت فيها مدام دين تقف بظهرها على جسر "Galveston causway" تحت سماء إحدى ليالي سبتمبر مرتدية كنزة رمادية بلا أكمام وحمالات عريضة كشفت عن نحر طويل ويدين مصقولتين وبنطال جينز أزرق واسع القدمين قد لامس إحدى كعبيها الآخر، قد أدارت نصف وجهها ونظرت من أعلى كتفها لتبدي عن ملامح جميلة حادة وعينَيْ ذئبة ماكرة، بحاجب مرفوع وابتسامة مثيرة.

رددت في نفسي: علَّها هي سيدة رسائل التوسل، للمرة الثانية أحرزت سريعًا ما كانت، فهي لم تَبْدُ لي كعارضة أزياء بوجه شمعي تساوت مع غيرها على أغلفة مجلات صيحات الموضة والعدسات اللاصقة، كانت مختلفة، وإلا لمَ ستكون قد رسمت بهذه الدقة، بهذا التناسق والتداخل اللوني فائقَ الروعة؟ قطعني عن تأملي السريع للمكان،صوتُه وقد أنهى كأسه ولا زال ممسكًا به ويشير:

- هل أعجبتكِ؟

حاولت تخفيف توتري بترديد:

- نعم، جدًّا، أقصد أعجبتني لما هو أبعد من الإعجاب. قطعًا

رُسِمت بيد رجل مُحِبّ، ليس فنانًا عاديًّا، لذا بدت بهذا البريق.

اعتقدتُ أنه قد فهم لما أشرت إليه، بل تأكدت حينما أجابني:

- هي زوجتي اليونانية الأصل؛ كاميني.

صمتَ بعدها لبرهة بينما كان يميل بجذعه على مكتبه ليتناول علبة سجائره الدومنيكانية ليمنحني انشغالُه فرصة الاندهاش، كان لا بد لهذا الجمال أن يكون إغريقيًّا ولكنني لم أعلق، كان قد أراد الإسهاب في حديثه كرجل تاق للحديث مع أي شخص، أي شخص حقيقة، حتى لو كنت أنا، امرأة لا يعرف عنها سوى اسمِها.. أو هذا ما اعتقدتُ.

***

ستيف، ساندرا

كنت سعيدة للغاية، أهبط عن الدرجات كفراشة، أحمل علب الهدايا التسعة انتقيتها وزوجي ستيف من أكبر متجر للعب الأطفال في River oaks، كان على دراية كافية بحماستي في هذا اليوم من كل شهر فيقدِّرها، ربما لهذا أحببته رغم فارق السن بيننا، كان يقدِّر ما أفعله، إلى جانب ميزات أخرى رأيته لأجلها رجلًا من الصحيح بل من الواجب أن يكون زوجًا لساندرا نورث.

أتممت وضع العلب في السيارة وانطلقنا سالكين طريق الجسر السريع كانت في حقيقة الأمر سيارتي أنا الـــــــــ " دودج دورانجو " وبما أنني سعيدة ومفعمة بالحماسة أردت الاحتفاظ بهما لحين وصولي، كان من الضروري تجنب عوائق السير وانتظار الإشارة الحمراء فالصفراء فالخضراء والانشغال بماسحات الزجاج الأمامية من الأمطار ونُدَف الثلج إن قررت الهطول اليوم، لذا وكعادة ستيف اللطيف قد بادر بتولي زمام القيادة اليوم:

– عزيزتي، دعيني أقود اليوم.

أتبعَها بقُبلة على راحة يدي. فما من شيء قد كان بإمكانه زحزحة قراري عنه، تحت أي ظروف وأي شروط لم يكن من ضمنها، أن لا

أنجب.

***

توم

أصبح مريضًا على نحو لا يُصدّق، بدا نحولُه واضحًا كثمانيني، وغابت نظرته التي كنت أحبها عني لينظر نحو السقف لعدة ساعات دون ملل، لا أعتقد أنه يشعر بشيء، لم يأكل لعدة أيام، بل لأسابيع، أحببته فوق كل شيء، فلم أكن لأفارقه خلال أربعة عشر عامًا قضيتُها في ربوع هذا المنزل، لا زلت أذكر وأنا ابن عشر سنوات كيف كنت أنتظر عودته، مختبئًا خلف باب منزلنا فإن هَمَّ بالدخول عائدًا من عمله كان يَلقَى كمَّ المفاجآت التي كانت بانتظاره من تحضيري أنا وساعدتني بها أمي، في إحدى المرات، قمت برسم صورته بألوان الشمع الأحمر والأصفر والأسود والأزرق على قميص أبيض قصير الكمين اخترته له، إلى جانبه أنا، كنت ممسكًا بيده الضخمة ذات الساعة الـــــــــ " ريتشارد ميل " مبتسمَيْن تحيطنا غيوم بيضاء وشمس بخطوط شعاع ذهبية في المنتصف، كهدية في عيد ميلاده السابع والثلاثين. أَحَبَّها كثيرا آنذاك، ارتداها في كل مرة خرجنا فيها سويًّا، كنوع من الافتخار بي أمام كل شخص يرانا، وإن كان عامل البلدية ذا الفواتير، أو الكهربائي الذي يُصلح كابلات الإنارة في الحي قائلًا:

– أصدقائي، هذه أهدانيها بُنَيَّ العزيزُ توم في عيد ميلادي الأخير،

فخور أنا به، سيصبح فنانًا تشكيليًّا شهيرًا، هذا العبقري يسير على خُطى "جورجيا أوكيف، جاسبر جونز، مارك روثكو"، ستشاهدون لوحاتِه في كل مكان، صُورَتَه على جميع شاشات التلفزة العالمية والهواتف الذكية، حتى هواتفكم أنتم أيها المشغولين، أرى مَعارِضَه تجوب العالَم تستقطب نخبةَ المجتمعات من هواة جمع اللوحات المهووسين ورجال الأعمال.

كنت أبعث له بعدد لا نهائي من الرسائل الصوتية، أخبره فيها كم اشتقت إليه وعليه أن يعود باكرًا لنلعب Animal crossing أو نحضّر لحفل شِواء شرائح اللحم في الهواء الطلق، نُحضِر فيه أصدقاءنا؛ عائلةَ مهندس الديكور الأشهر ليام جيمس، وزوجتَه السيدة الأرستقراطية ذات قبعات كوبيون الملكية، أمي لم تكن تحبها؛ كان ظاهرًا من تغيُّر درجات اللون في وجهها فورَ حضورها، وعائلة صانع المحتوى البشوش ونسب المشاهدات الفلكية آندي بلينك، الأرمل منذ خمس سنوات، له بنتٌ رقيقة كانت تقضي معظم وقتها في منزلنا فلا زلت أسأل:

– هل بشاشته هذه خُلقت معه أم من بعد حالته الاجتماعية الجديدة؟

كنت أصر أن نقوم بجولة في سيارتنا على متاجر ألعاب الڤيديو والسيارات الضخمة المتحركة، كنت بالنسبة إليه كنجم صغير يضيء من حوله فقط، أراد لي أن يُنير ضيائي –إن استطعتُ– الكواكبَ

والمجراتِ، فإن كانت تلك أمنيته لي، فقد كان هو مسبقًا لي كذلك، إلى أن تغير كل شيء.

***

روكا، لورانس

– سيجار مدام روكا؟

قالها وهو يَشرع في إشعال واحدة. بإشارة من يدي كضابط مرور صارم:

– لا.. لا سيجار أيضًا.

– لا سيجار أيضًا، استقامتك مثيرة للدهشة حقًّا، لا كحول، ثم لا...

قاطعتُه كي لا أفسح مجالًا للتنمر أو الاستهزاء:

– لا للعقاقير المخدرة ولا للرجال، لا لكل شيء يَنكث وعدي.

باستغراب:

– وعدكِ؟

كنت أجيد قلب الأدوار بدقة كمن يدير دفة القيادة تفاديًا لأي خطر على وشك الحدوث ولم أعرف حينها إن كان سيهدم أسواره ويسمح لي بالتدخل أكثر، فلم أجبه بل قلت:

– أين كنا؟

نظر في عينيَّ مباشرة.. تفاديت نظرته اللامعة.

- أين كنا؟

هطلتِ الأمطار بكثافة أكثر، منحت للنقاش لمحةً دراميةً ليُسهب بعدها تلقائيًا:

- زوجتي يونانية الأصل، كانت في هذه اللوحة هي الساعات الأولى التي هبطت فيها من أرض المطار على هذا الجسر في خط مباشر، لم تخبرني قبلًا مَنِ الذي سبق الآخر إلى هناك، كان القدَر قد رتب لنا لقاءنا بينما كنت في طريقي لحضور افتتاح معرض صديقي للوحاته السيريالية حتى لمحت حضورها، هي التي أوقفت بي الزمن، لم يسبق لي أن أُصبت بحالة ثبات كالتي كنتها حينذاك، وقفت قرابة عشر ثوانٍ في حالة ذهول تام، أتامل نجمة أوقعت بنفسها على هذا الجسر، أخرجني عن ذهولي سقوط حقيبتي الجلدية لأتذكر بأنني عليَّ الشروع برسمها في الحال، فالسماء لا تُسقط نجومَها كل يوم، أخرجتُ قلمَ فحم من جملة أقلامي المنمَّقة وورقة آي فور مطوية، شرعت في رسمها بيدٍ ترتعش، قلت في نفسي: من أين أبدأ؟

شتَّتَ ذهني ضوؤُها اللامع في هذا المساء البارد، ويكأنها أحست بشيء ما يدور خلفها، فالتفتت، أدرَكت على الفور أنني أرسمها، راقها الحال، وهبتني نظرة الذئبة تلك سريعًا وابتسامةً أوقعت في داخلي يقينًا

أنها سيدتي أنا وحدي!

راح ينظر في لوحته وكأنما عاد سرب هذه الذكرى يحوم حوله من جديد فأكمل:

– أنهيت رسمها فوقفت على قدمي التي ثنيتها لعشر دقائق وقد تخدرت، فنال بنطالي الكاكي بعض الشحوب ورفعت ورقتي عاليًا فقلت وقد كنت ألهث:

– لقد انتهيت يا آنستي، انتهيت.

اقتربت مني، بمشية قِطة، لم تنتظر أن ترى صورتها بين يديَّ، أخذت ورقتي بيد خاطفة رقيقة:

– جعلتني أكثر جمالًا يا...

– لورانس، أنا أنا لورانس، وأنتِ؟

وكمن تعقد صفقة قد أردفت:

– لن أخبرك حتى أرى صورتي بحجم أكبر.

مُنهية جملتها الأخيرة بتوقيع رقمها في كعب الورقة.

***

I've got you under my skin

I've got you deep in the heart of me

So deep in my heart that you're really a part of me

Frank sinatra.

ساندرا نورث

كنت أطمئنُّ معه وجعلني أرى نفسي أفضل من خلاله، كان دعمي الأبدي، واختياري الأصوب، هذا ما فكرت فيه، ورددته بداخلي طيلة سيرنا، كان يعلم هذا ولم يشعر يومًا أنني أتملَّقه؛ حيث لا حاجة لذلك. لم أكن لأنسى كيف كانت الصدفة البحتة هي اليد الخفية التي جمعتنا معًا في مقهانا الذي أصبح فيما بعد المفضل لكلينا، بينما كنت أنتظر قدوم صديقة قديمة على طاولتي الخاصة وحيث كنت ألقي نظرة على قائمة المشروبات الجديدة "vintage port، rare cognac, Bourbon، " قبل أن يلحظ أحد قد جاء من المجهول بإنجليزية ركيكة فهمت منها من أي بلد رجعي قد هبط، نسخة كتابي الجديدة كانت على يساري طرحت فيه قضايا المرأة في مجتمعات العالم الثالث برؤية حديثة لينقضَّ مُهاجمًا عليَّ وقد قذفني بأبشع الألفاظ وسط طاقم النُّدُل وعمال النظافة والبرجوازيات الجدد.

– أنتن أساس الفساد، هجرَتْني زوجتي بسببك، أنتِ تحديدًا سأقتلك.. سوف...

ما كان قد أنهى ثورة تهديداته حتى قد تعرَّض للكمة أغمته فورًا، مِن رجل كنت حينها قد التصقت بظهر قميصه الفاخر فأمسكته بكلتا

يدي فكادتا تمزقانه خوفًا، انتهى الحادث العرضي هذا بأن جلسنا معًا لساعتين على ذات الطاولة وقد أخذ حديثنا مناحيَ عِدَّة، في بدايته، كنت قد شكرته على موقفه الشجاع معي، فلولا أن جاء في وقت مناسب لربما كُسر أنفي أو فُقِئَت عيني بيد مخلوق بَرِّيٍّ هجرته زوجتُه لسبب في رأيه بَسيط. كان رجلًا معنفًا لها بكل صدق، فما كان مني إلا أن أرد عليه عنفه، فقد شكوناه سويًّا في مركز الشرطة وكان هو ذاته محتوى بُثوثي لشهر كامل، بعد رسالة وردتني عبر خاصية الرسائل الخاصة في المنصة الاجتماعية من زوجته بدأَتْها بعنوان: "أَنْقِذِيني" فلم يكن بمقدوري تجاهلها وإلا كان وجودي على المنصة مجرد ظهور إعلامي مزيف لا أرتضيه على نفسي، حينها بدا مهتمًّا، سمعني دون أن يَمَلَّ، لم يحاول سد ثغور حججي بفلسفات ذكورية، كوسيلة حماية نفسية من كلامي، أعترف بأنني كنت كلما هدئت أعود فأحتد، لم يُشعرني بأنني غريبة عنه، كان حديثنا سلِسًا ينساب من كلينا دون حواجز، تركزت عيناه عليَّ لفترة طويلة، كمن يدرسني، يفهمني، كمن يحاول أن يجد بيننا رابطًا ما، طلب لي عشاء فاخرًا وكأس بوردو، غازلني بعفَّة، لم يكن فظًّا وقحًا، غاب عني لحظة، طلب فيها من نادل وسيم تشغيل I've got you under my skin، كنتُ أعيد شَعري للوراء، فكان رقيقًا في طلبه يدي للرقص، رشيقًا ينافسني بخطواته، رقصنا فملأنا المكان، غاب الناس عنا، لم نرهم، كنا وحدنا، صفقوا فلم نسمعهم، هتفوا

فلم نسمعهم، خطونا يمينًا فيسارًا، دُرنا كثيرًا، كنا على إيقاع موسيقي ملحمي، تثبتت عيناه في عيني، فسألني هامسًا:

- لم أعرفِ اسمك بعدُ.

أجبته:

- عليك أن تكون زوجي.

***

توم

أسعَل بشدة، أختنق أختنق، نيران سوداء من حولي وأنا وحيد في المنتصف.

قلتُ وقد بدأت أستفيق بصوت باكٍ صارخٍ:

– هل أنت بخير أمي؟ لِمَ دخلتِ من بين النيران؟ كيف فعلت هذا؟ هل احترقتِ؟ أنا آسف أنا آسف، لكنني لم أفعل هذا، كانت تتحسس وجهها وذراعها بيد بينما كانت اليد الأخر تعانقني، بل تتشبث بي.. صوتها كاذب يئن:

– أنا بخير لا تقلق، لا تقلق، هي فقط ذراعي لقد مَسَّها...

لم تستطع أن تُكمل، كانت قد اشتبك ذراعها بذراعِي، صرنا أقرب لمخرج الحريق الخلفي، أُمسك بها، أرجُّها، أشهق أنفاسي فوق ردائها المحترق، كانت تتألم، تتألم ولا زالت غرفتي تلتهمها ألسنة النار:

– إنها يدي، يدي احترقت بالكامل، أسرِع يا توم، لن نبقى هنا، لن نبقى.

خالَط سؤال بكائي:

– هل إلى المشفى؟

صوتها ينقطع، كنا نركض:

– لا، بل ربما فيما بعد، الآن مستحيل.

– ويدك؟ أراها تذوب!

بنبرة حادة أمرتني:

– اللعنة على يدي، هيا هيا، قبل أن يلحق بنا.. إن كنت تريد النجاة.

– نعم أريد، أريد.

صوته من خلفنا مرعبًا:

– إياكِ وتوم، إياكِ وأخذه بعيدًا عني!

التفتتْ إليه بصوت كاره يستغيث:

– ذلك اليوم الأخير بيننا، أنتَ مريض، أنتَ مريض، تغاضيت عنك لغباء مني كثيرًا، لكن كفى، كفى.

أنكر فعلته بصوت حاد:

– لم أفعل شيئًا.

ضمتني بيد واحدة، التصقتُ بها كقط.

– بل فعلتَ، دائمًا ما كنتَ تفعل، إن كنتَ لا تريد حياتك فلا تفعلها أمام طفلك على الأقل.

– قلتُ لم أفعل شيئًا.

يدها تقطر دمًا أسود، صرخَت:

– هذه المرة الألف التي أنجو به منك، اذهب واجرع قِرَب الكحول وحدك، أَفرغها في جوفك النَّتن وحدك، زِدْ دماءك سُمًّا بعقاقيرك القذرة، لن تَنالَ منه شيئًا وإن متَّ.

بدأ يلقي بلومه، اقترب منا أكثر، عادت للوراء تنضح عرقًا فأرجعتني خلفها، أنظر إليه بنصف عين باكية:

– أنتِ سبب كل شيء.

دافعَتْ عن نفسها:

– أَلْقِ لومَك على خيالِكَ المريض، وَساوِسِكَ، شكوكِكَ، أنت تنتحر بقتلك إيانا، لكن لن تنالَ شيئًا.

دوَّت منه صرخة كتلك الرصاصة التي أطلقها من سلاحه صوبها، ألقت بها أرضًا وسط بركة من دماء!!

– عزيزتي، مَن فعل هذا بك؟

راح يركض نحونا ويأمرني:

– توم، هيا معي.

روكا، لورانس

قلتُ مستعجبةً وبشكل مباشر:

– يا لها من امرأة مبادِرة!

التقف مني كلمتي، بل اصطادها فورًا:

– نعم كانت كذلك، ولذا هِمتُ بها حتى قُبيل أن تختفي عن ناظريَّ.

كنت قد استأذنته بالجلوس، فاقترح جلوسنا في شرفته. قلتُ مترددة:

–هناك أمطار وقد...

– لن يحدث شيئًا سيِّئًا طالما لم نفكر به.

أومأت برأسي كمن يهزأ:

– هذه فلسفة لم تُثبت نفسها، على الأقل معي.

– أطلق دُعابة فيها شيء من السخرية:

– هل قلتِ لهذه الفلسفة لا أيضًا؟

– لستُ متشائمة، لكنك تبدو أكثر تفاؤلًا.

أردف كمن ينفي عني شيئًا:

– لا تَبدين كذلك قطعًا، يبدو أنه شيء من الماضي.

أمام عينيه مباشرة بدت عينايَ تسأله:

-كيف أبدو؟

- فأجابني بعناق:

- هكذا.

ستيف، ساندرا

– سأكون الرجل الأحمق في العالم إن لم أكن.

كان ردي أسرع مِن أن أفكر به:

–"كنتِ بين يدي كمَاسَةٍ، أَسقَطَها الرب لي". ردَّدت لها هذا في كل يوم من العام، في كل المناسبات، في العطل الرسمية وغير الرسمية، في آخر انتخابات شهدَتْها البلاد، حتى وإن كنتُ أقوم بحلاقة لحيتي، لم تكن لتَمَلَّ، أو لتشعر بأنني أخفي شيئا وراء هذا، كانت تلك الحقيقة الوحيدة بيننا، نحن عائلة مثالية..

– لستُ أمًّا يا ستيف.

قالت هذا بينما كان على اقترابنا لبيت الأيتام حوالى عشرين دقيقة.

أغمضتُ عيني محاولًا تفادي أي رد فعل غير محسوب، فلم ولن يصدر عني شيء يغضبها. كررتْ وقد التفتت وشاحت بوجهها عن الطريق اللامع:

–لماذا أنا لستُ بأمٍ يا ستيف؟ لِمَ على هذا أن يكون شرطًا لاستقرار زواجنا؟

حاولتُ تخفيف أي تصعيد في النقاش:

–عزيزتي ساندرا، هذا ليس شيئًا يثار ونحن على بعد دقائق لاحتفالٍ لنا غرض واحد منه أن نجعل أطفالًا سعداء، لقد...

قاطعَتْني وقد كان (الغليان) الوصف الأدق لحالها!

– لم تحبني يومًا، ستيف!

اتسعت عيناي وكدت أضرب بسيارتها مؤخَّرة سيارة أمامي:

– ما بكِ الآن؟ ما بكِ؟! هل نذهب لنشرب شيئا قبل...؟

قاطعتني بحدة أكثر من السابق:

– لن نذهب إلى أي مكان، نحن ماذا نفعل هنا في الأساس، لم عليَّ أن أكون أمًّا عن بُعد؟ لِمَ قد أتسول شعوري وأُحيِي غريزتي عن بعَد أيضًا!

ثارت وقد صعَّدت من حدة كلامها وبدأت تضرب بطنها بكلتا يديها:

– مِن ماذا يشتكي رَحِمي؟! مِن ماذا؟! هل هو خَرِبٌ عَفِن أو قليل إنتاج البيوض؟!

ضربت يداها نافذة السيارة وكابحها والمرآة، دخلت في حالة هستيرية، صرخت، بكت، يداي على المقود المطاطي أثبتهما جيدًا كمبتديء فقالت:

– كيف أوصلتُ نفسي إلى هذا الحد؟ كيف قبلت بهذا؟ لا لم أقبل، لم

أقبل بهذا يومًا يا ستيف، أنت تعرف هذا.

استفاق وحش نام طويلًا بداخلها، فلم أعرفها، عيناها توحشت، لم أجرؤ على مقاطعتها، صوتها أصبح أشد غلظة:

-كنتَ لي رجلًا ساحرًا منذ اللحظة الأولى التي ركضت فيها كفيراري فحميتني، لم أُشِح النظر عنك، كنتَ تستحقني، تستحق ساندرا نورث، ولكنك، ولكنكَ استحوذتني لك، أخذتني مني.. أخذت ساندرا من نفسها!

صوتي بدا خافتًا خائفًا إلى جانب هديرها وأنا أقطع إشارة ضوئية مخالفًا لقواعد السير فأدير بجسدي ناحيتها:

- لكنني أحببتك، كيف أصبح كل شيء بهذا الشكل فجأة؟ متى ساندرا؟!

أخذتْ تتنفس بصعوبة وترتجف، تمسح عينها تارة فيسيل دمعًا خالطه سواد، يزيد ارتجافها فتعيد شعرها للوراء بيسارها النحيلة، تحاول ربطه كفرس جامح أبى الرضوخ إليها فتفقد أعصابها ثانيةً فيلاطم كالموج شواطيء وجنَتْيها.

- فجأة! أتعتقد أن شيئًا سامًّا تسلل إلي جوفي هكذا فجأة؟!

اتسعت حدقتا عينِي من هول ما أسمعه، غشاوة رمت بنفسها فيهما،

لم أعد أعرف الطريق، هل نقترب من مقر الاحتفال أم نبتعد؟ هل لا زلتُ لم أخالف السير كمنذ أن لمست يداي أي مقود سيارة من أي نوع في حياتي؟

فأكملتْ:

– لا شيء يحدث فجأة ستيف، لا شيء، مر عام فعامان فثلاثة وأعوام أخرى لا أستطيع حتى عدها، كنتُ سعيدة فيها فأكاد أطير، كنتَ لي شمسًا تهبني الحياة كل يوم، لكن جمرة بداخلي لم تكن لتنطفئ، يزيد اشتعالها في قلبي كلما رأيت طفلًا يلعب تحت شرفتي وإن كان يطلق فقاعات الصابون في الهواء، طفلًا قضى على أقل تقدير عشرة أعوام نما فيها كزهرة في قلب أمه، فإخال نفسي أنا هي، يناديني بأمي، يركض نحوي، يُلقي بنفسه بين يديَّ، فأغلق شرفتي وقد أحسست بذنب لم أفعله، ولم أؤمن به، أتحرر من بعدها من كل شيء حتى خاتم زواجي، فأغمر نفسي في لِترات من الماء المثلج في حوض استحمامي كي أستكين وأنطفئ.

بذهول أنظر إليها، عُقِد على لساني، فتُكمِل:

– نعم أنطفئ، أنطفئ، لأعود وكمن تُعِيد شحن طاقتها بقصص القتل والتعذيب والحرق والكي وتجارة الأعضاء وخلع الأظافر وفقء العيون لأطفال لأغراض التسول في بقاع من العالم قذرة، تمنيت لو كل

طفل منهم كان ابني أنا، كل ظفر منهم هو ظفر ابني أنا، ابن ساندرا نورث، فأسلط لساني اللاذع في نشر قصصهم على الملأ، وأقذف بأقسى العبارات لأشباه الأمهات والآباء مَن جاؤوا بطفل لهذه الحياة كي يعذبوه، بل كي يقهروه، هم لا يستطيعون على الأقل حمايته، هم لا يريدون حمايته، هو طفل جاء للحياة هكذا بلا قرار بلا هدف وعليه أن يجرع كلَّ مراراتها وحده، فتمر ليال بأكملها، جعلتني فيها أسال نفسي بعد كل قضية أستنفذ فيها طاقتي: لماذا جعلتني نصف امراة؟!

كانت قد نظرت إليَّ بعينين امتلأت مني بالأسى ثم أراحت وجهها بين كفيها لتخمد فيهما صوتها الباكي، فلم أحتمل، وعلى غير كل مرة دار فيها بيننا ذات النقاش، أطلقتُ فيها صرخة أسكتت مِن حولنا كلَّ شيء حتى نعيق الغربان فوق الجسر:

– لأنكِ لا تعرفين شيئًا يا ساندرا. جعلتُكِ لا تعرفين أي شيء.

***

روكا، لورانس

ثانية، خمس ثوان، عشر ثوان، خمس وعشرون. يا إلهي، لقد تجمدتُ، لِمَ غيَّر المطر معزوفته! فككت نفسي من تحت ذراعه، وسللتُ نفسي وَشَعري المطوق بالوشاح ودفعته عني بيدين ترتعشان.

– م... ماذا؟ ماذا تفعل يا هذا؟!

قال بفلسفة:

– الأشياء الجيدة أيضًا تأتي دونما تفكير، دونما تخطيط.

لا زلتُ تحت هول الصدمة ولكنني أردت الظهور بمظهر الصخرة الثابتة:

– أرجوك، دع عنك هذه الفلسفات، أعرف كل ما تقوله، اختبرت كل الأشياء التي يتشدق بها الفلاسفة ولكن، هي أشياء تنفي عنها صحتها تجاربُ البشر، ما من أحد قد يكره حدوث كل الأشياء الجيدة دون مجهود، لكنني لا أعلم لِمَ أخبركَ بهذا، فإن نسبة حدوث شيء سيئ دون تخطيط هي الأكبر لا محَالة.

قاطَعَنِي بغتةً كمن أعجبه كسر الجمود الذي افتعله منذ دقيقة:

– لا بد أن وراء هذا قصة ما.

أشحت بيدي وعيني معًا برفض لفكرة الانسياق لحديث ما رغبت في مجيئي لهذا المتحف الصغير لأناقشه مع رجل خالف كل توقعاتي، وفوق كل هذا قد رفض استرجاع هاتفه، لكنني لا أعرف ما الذي استبقاني هناك، ويكأنه قد نبش عن فضول خفيّ كان لديّ أو تولّد فجأة جرّاء هذه الصدفة العجيبة مع هذا الكائن القاطن في ناطحة سحاب، لأدفع عني تساؤلاته بنحوي فأقول بحزم مباشر:

– مَن أنتَ؟ ومَن كاميني؟ ولِمَ أنت مختلف عما أراك هناك؟

أشار إليَّ وقد بدأ يسعُل، فهمت منه أن علينا الدخول الآن، دخلنا فلم نغلق باب الشرفة خلفنا، كانت السماء قد صار لونها كما لو كانت قبيل الشروق، ناعمة مضيئة بعذوبة أحبها، ليضطر وقد حاول وقف سعاله بشرب نصف لِتر من زجاجة ماء كانت على مكتبه ذي الملفات المغبرَّة والرطبة إلى جانبها حزمة من فراشي الفيلبرت والمروحة والتفاصيل بكافة الأحجام والمقاسات تركت وقد جفت عنها ألوانها فبدت خشنة قاسية، حزينة وكأنه هجرها، إلى جانب أسطول من علب الأكريليك والزيت ولوحات المزج قد جف عنها أي أثر للون حي كان عليها يومًا ما، شيء قد استطاع لورانس الغامض لمح اندهاشي به بعد هجمة السعال الآنفة، لأسال وقد جلست على أريكة زرقاء مغطاة بقماش مخملي كمحاورة في برامج النجوم تستضيف فنانًا رغم شهرته فهو مغمور بإرادته وشبّكت أصابعي وأرحتهم على ركبتيَّ في وضعية

استعداد هجومية:

- هل أنت انطوائي؟!

أجاب قبل أن يصبح قبالتي وقد جلس كجلستي بِنَفي ساخر:

- لا، بل ربما نعم.

- كاره للبشر؟!

- نعم،وربما لا.

- فيلسوف؟!

يصبح صوته مخمليًّا أكثر:

- بعد اليوم قد لا أظن ذلك.

عدتُ بظهري وكمن خسر جولته الأولى ليفعل مثلي:

- ربما مؤمن أيضا؟!

- هذا مؤكد.

حسنًا، قلتها في نفسي، ها قد بدأنا نجد أرضية مشتركة.

- بِمَ أنت مؤمن؟!

- بكل شيء، ولكن على درجات متفاوتة.

عقدتُ حاجبيَّ استفهامًا ليكمل من تلقاء نفسه:

– أؤمن بالرب، بالحياة، بالصدف أو دعينا نسميها أقدارًا.

اتسعت عيناي، عظيم، لا زلنا على ذات الأرض المشتركة:

– ماذا عن الأخطاء؟!

زم شفتيه ليقول بعدها:

– لا خطأ في الخطأ، طالما كان وقعه على النفس وليس على الآخرين.

بدأتُ أعترض:

– لا أعتقد بصحة معتقدك، الخطأ هو الخطأ، بل تفادي أخطائنا مع ذاتنا يخفف أخطاءنا مع الآخرين.

وبأسف أكملتُ:

– الشيء المؤسف هنا، أنه حتى وإن لم تكن لديك أي نوايا بارتكاب أخطاء تجاه الآخرين، فأخطاؤهم تجاهنا تحدث دائمًا، في كل وقت وتحت أي ذريعة، حتى أنهم لا يشعرون بذلك، أو ربما يشعرون لكن لا بأس لديهم، طالما أن وَقْع أفعالهم لا يعود إليهم، فهم مرتاحون مع هذه الحقيقة لأسباب تخصهم.

أومأ برأسه ثلاثًا مع إشارة بسبَّابته كشفت عن يد أحاطتها ساعة "باتيك فيليب" تظهره بمظهر رجل قد حَظِيَ بثروة من مكان ما كما لو

أنني أصبت لُبَّ هدف:

– أتفق معك، أتفق، هم يجعلون حيوات غيرهم جحيماً، رغم أنهم مدركون لكل شيء.

ألحقته بسؤال كما لو أنني أردت لأحد ما أن يجيبه عني:

– فهل تغفر؟!

نهض وقد حام حولي:

– أنا في شك من هذا، لكن لا أعلم.

–وأنتِ؟!

– قطعًا لا، هناك أشياء لا تغتفر!

***

ستيڤ

أوقفتُ سيارتها الجيب حتى كاد احتكاك إطاراتها الأربعة يُشعل حريقًا هائلًا، جفلتْ لأجله ساندرا، فأخرجها من نوبة الغضب الغريبة التي انتابتها طيلة الطريق لتسألني كمن سكبت عليها دَلوًا من مكعبات الثلج:

– ما الذي لا أعرفه؟ ما الذي جعلتني أنتَ لا أعرفه؟!

كان الطقس منعشًا رغم كل شيء، فأخذتُ عدة أنفاس عميقة أملت منها الهدوء، رفعت يديَّ عن المقود وقد تعرَّقتا على غير عادتي جرَّاء موجة التوتر التي ضربتني، مسحت بها جبيني فشعري الأمامي الخفيف لأبدأ القول وقد أَتَحْتُ لنفسي النظر للمدى الفسيح أمامي من مياه النهر المتلألئة تحت شعاع الشمس الموشكة على الغروب:

– لقد أحببتِني يا ساندرا، أعلم هذا ولا أشك فيه، أحببتِني بإخلاص لم أره في مئات الناس من حولي، رغم فارق السن والاهتمامات والأذواق، كنت ولا أزال ذاك العظيم في عينك.

ما زالت عيناها ذاهلتين وتنظران كمن يستحثني على الكلام دون فاصل:

-ربما لو كنتِ أقل حبًّا لما كنا وصلنا لما نحن فيه، ربما...

قاطعتني:

- أقل حبًّا لك! إياك وأن تبدأ بإلقاء لائمتك عليَّ!

هززت رأسي نافيًا:

- لن أفعل يا عزيزتي، لكنني خائف، خائف جدًا، حاولت كثيرًا إخفاءه عنك ولكن...

نفضت رأسها كمن تحاول استيعاب ما تسمعه وبصوت رقيق مختنق:

- مِن أي شيء تخاف؟! من أي شيء يا ستيف؟

بدوتُ في أكثر حالاتي انكسارًا وتمردًا:

- أخشى أن أكون أبًا سيِّئًا، لا أريد هذا، لا أريد أن أصبح نسخة مصغرة عن أبي.

***

لورانس، روكا

- هات يدَكِ.

قالها مفاجئًا، مد يده فبانت لي أصابعه أكثر طولًا وعروق ساعده الزرقاء أشد زرقة. مددت يدي فوقفت عن أريكتي ليقول:

-هاتِ يدكِ لنرقص.

كانت استجابتي أسرع من أي شيء فعلته في حياتي، اتخذت مكاني فورًا. وقفنا قبالة بعضنا، اتخذتْ أيدينا أماكنها، كتفه وظهري، وصارت كلتا يَدَيْنا تُمسكان ببعضهما، كنا في الحال "جوليا بالما وكورينا دي لاروزا".

تقدمتْ قدمه اليسرى فقال هامسًا:

- أي شيء لا تغفرينه؟!

فعلت بيميني مثله فقلت:

- كل البشاعات في هذا الكون، وأنت؟!

بِرِقّة تقدم للأمام، محترفًا للتانغو بلا منازع:

- مَنْ يَسرق قدَري.

أنافسه برشاقتي فأعود للخلف:

-وهل القدَر يُسرَق؟!

- نعم.

ندور وندور:

- مَن فعل بكَ هذا؟

- كل الأشخاص في حياتي.

- لا زلتُ لم أعرف مَن أنت.

يزداد صوت الموسيقى أَلَقًا، فيَطغَى على ما دونه:

- حقًّا لم أعد أعرف.

- هل أنت ثَمِل؟

- ليس بعد.

أدور فأقول:

- أنت غامض في الخارج، أنتَ لستَ كما هنا.

- أنا أحمي نفسي.

الموسيقي تشتعل:

-من ماذا؟ أنت محامٍ على الأرجح؟

-ربما لا أعرف كيف أحمي نفسي.

-حياتك مليئة بالأشرار؟

- الأشرار في كل مكان، حتى فينا نحن.

-مَنِ المذنب إذن؟

-لا أعلم، فقط أنا متعب.

- تزيد الأمر صعوبة عليَّ، ماذا تريد مني؟

-ما الذي نريده من كلانا؟

-كلانا؟

- نعم كلانا، رتب لنا القدر لقاءنا اليوم،،

- لأجل ماذا؟

- لننقذ أنفسنا..

ستيڤ

نزلنا من السيارة، خطوت خطىً سريعة أصبحت فيها أقرب من ساندرا إلى سياج الجسر الحديدية، حللت ربطة عنقي، فكدت أمزقها، أصبح قميصي متعرقًا ومهلهلًا عن ما كان، لحقتني ساندرا بخطى أبطأ، كما لو تخدرت، قدماها ثقيلتان كما لو أن همًا محدثا قد أثقل وزنها، صارت على بعد متر واحد مني، لم تكد تنطق حتى تمزقت أصداغي غضبًا، فما كان مني الا صرخة جمدت الكون من حولي، أحرقت جوفي، فككت حبال صوتي، لكنها نزعت عني روحًا كبتُّها، كنت حبيس نفسي لعمر طويل، هذا أول شيء قلته بعدما لامست يداها المرتعشة كتفي.

– ساندرا، لقد كنت الشاهد الوحيد حينذاك

إختنق صوتي، كبتُّ دموعًا لو أنزلتها لأحرقتني، لزحزحت تمثال هيبتي أمامها.

يدها باردة تضغط على كفي.

– كنت شاهدا على ماذا؟

– كانت تلك آخر ليلة أراهما فيها معًا، ربما..ربما قد مل القدر وجودهما، فأراد أن يضع نقطة النهاية لهذا الثنائي العجيب.

إزداد تشوشها، بدأت تتحرك في مكانها دونما هدف.

– لم يكن ليستطع قهرها هي، لم يكن ليهزمها هي، فأراد نزعي من روحها، كنت وسيلته، كنت فريسته اليسيرة دائمًا،،

حرارتي الآن فوق احتمال أي مقياس للحرارة، شعرتُ بدوار دعاني للجلوس ضاغطًا على كاحلي، فهبطت هي الأخرى بجانبي.

أكملتُ وقد استعرت حنجرة نمر،،،

–كان خبيثًا ماكرًا، الإبتزاز وسيلته، يعرف أقصي نقاط الضعف ليدوس عليها بلا شفقة، وهي امراة كان أقوى ما فيها حبها، تلك كانت خطيئتها، وذاك كان، قاتلها.

***

روكا، لورانس

إنتهت رقصتنا نهاية درامية، تلاقت عينانا عشر ثوان فهمنا فيها كل شيء، لم تدعنا الموسيقى وحدنا، فهمت هي الأخرى، اهتز لورانس، تغير لونه، تركت يداه يداي، انزلهما بصعوبة، فهمت أن أمرًا قدر له الحدوث هنا، هنا يفتتح القدر أحدث فصوله، صار يجيء ويذهب في حركة لا تتوقف، اضطرب وقد تخلى عن سمة هدوءه التي راقت لي منذ أقل من ثلاثين دقيقة، عرض عليَّ سجائره مرة أخرى، راح يشعلهن واحدة تلو أخرى، يطفئهن عند أول نفثة، كان ذهولي صامتًا، علمت أن عليَّ الصمت أكثر، عيناه تنطق وجسده كذلك، لكنه بقي صامتًا، ها هو يقترب، يقترب أكثر، يفتح فاه ويغلقه، يلد كلماته ويوئدها، لم أستطع منع نفسي، فكسرت صمته،

- سأذهب الآن.

صرخ فيّ وقد استدرت.

- حتى أنت كاذبة، تكذبين في كل شيء، تتظاهرين بجمودك، بقوتك، بإيجابيتك، بمرحك، بينما نخر السوس داخلك، أنت كتلة من الآلام تمشي على الأرض،، استدرت فما كان مني إلا أن هطلت بيدي على وجهه الأشهب

- إياك أن تحيي بداخلي شيئًا دفنته.

***

ستيف

كنت أغطي بكفي عيناي، أوشكت على فقئهما، هجمت نوبة الصداع اللعينة في الحال، أضغط أكثر فأكثر، وأشرب أنفاسي بصعوبة، خرجت تلك الكلمات مني دون قصد، لم أكن لأخبر أحدًا بشيء كهذا لا سيما ملاكي ساندرا.

– كان بيتنا كئيبًا موحشًا ضيقًا رغم اتساعه، لم يكن فيه أدنى مجال للفرح، لم أرها تزين شجرة عيد الميلاد، أو تجدد أرائك الصالون، لم تكن لتضع أحمر شفاه أو لتنثر شعرها أبدًا، كنت أراها وقد نسيت أنها امراة، لكن شيئًا وحيدًا لم يكن لتطاله يداه، كان قلبها، كان كلما تجدر، زاد لينًا نحوي، كلما تألم فاض إحساسًا بي، كانت ستجعل من الكون عدوًا لها فقط لأجلي، حتى وقد دبر خديعته، عاد كأفعى حابسًاسمه بين أنيابه.

– هيا يا صغيري، سنسبح معًا، لقد ملأت حوض السباحة بالماء، فلنر إن كنت تستطيع هزيمتي

كنت حينها ابن أربع سنوات، كانت لتغريني فكرة أن لي أب يريد مشاركتي اللعب، ما كان يحدث ذلك كثيرًا، لكنه في هذا اليوم قد حدث.

شعرت بالمارة ينظرون إليَّ، يُطلون عبر نوافذهم وكأنهم يريدون

استراق السمع لأي شيء أتفوه به، أخفيت فمي بيدي، أشحت بوجهي عن الناس، عن السماء، عن الغربان كنت في مواجهة نفسي، أفرغ سُمًّا سكن خلاياي سنوات طوال، أتقيَّأ كلماتي أمام حبيبتي الوحيدة.

وقف بجانبي، عَدَّ ثلاثًا قبل أن نقفز معًا، بدأ يسبح، سبقني بالطبع، لحقت به، كان قد عاد من حيث انطلق، أعاد الكَرَّة مرارًا، لحظت كم كان مُجهَدًا!! على غير عادته، وقفت في منتصف الماء، كان يلهث، حثني على الاستمرار.

سمعتُها تنادي، كان صوتها ما كاد ينطلق حتى يغيب، أين أنا؟ لست على السطح، ربما أعمق قليلًا، لا، ربما أكثر عمقًا، غاب صوتها، أنفاسي تنقطع، طنين صاخب في أذنيَّ، قدماي ترفسانه، لا أستطيع الكلام، يده على فمي، زاد ثقله عليَّ، أقاوم فلا أستطيع، أنا أحتضر، أحتضر، ينتفخ قلبي، ينتفخ أكثر، جاءت أخيرًا، صار صوتها أكثر وضوحًا، لم تكن لتراني، لكنها رأته، كان غولًا قد التهمني، ها هي الآن تصرخ، تقفز في الحوض الكبير، لا تجيد السباحة لكنها تحاول، وصلت إليَّ، أحسست بيديها الناعمتين تنتشلاني، غرزت أظافرها في يدي، لكَمها فأدمَى أنفها، لكنه تركني، لقد استدرجها، أحسن استدراجها، يده الآن على فمها، رسمتْ بأظافرها كشوطًا على ذراعيه المليئة بالثآليل، إنها تقاوم، أنا أبكي، بل أَنُوحُ، ما حيلتي أمام عملاق؟ أدفعه فلا أستطيع، ألوذ بالفرار مبتلًا، راجفًا، أبول على نفسي، أركض فأسقط مرة أخرى،

منزلقًا، أصيب ركبتي لكنني أقوم، أركض، وأركض، أبتعد عنه، فغبت عن ناظريه وللأبد.

***

روكا

لم يقاومني، لم تستفزه لطمتي، كان يعرف كيف يَثبُت، كان قد هيَّأ نفسه ليوم كهذا. أعدت تهديدي إليه:

-إياك أن تجرؤ على اقتحام حدودي! حين أُمِيت شيئًا بداخلي يبقى ميتًا وللأبد. أشعر بأثر يدي على وجهه، لقد تخدر، بدا أكثر هدوءًا ليقول:

- وإلى متى روكا؟ إلى متى أيتها الملائكية؟

أثور في وجهه لمحو أي أثر ملائكي يراه:

-ومَن أنت لتنكأ جروحًا لا تعلم عنها شيئًا أيها الغريب؟ أنت حتى لا تعلم مَن تكون، أنتَ ضائع تائه متعب، أضعتَ هاتفك بحماقة، تعيش ازدواجية تهرب بها من نفسك قبل هروبك من محيطك الخارجي.

كان لا يزال صامتًا، له عينان سكنتهما الحرارة، صمت طويلًا ينظر إليَّ، أصبحتُ مشتَّتة، كنتُ وقد حاولت إسكاته، صرت أحاول استنطاقه، هل أفرغت ما في جعبتك نحوي، قل كل شيء قبل أن أغادر فلا أعود لأي سبب كان، وإن توسَّلتني.

- أعيدِي لي طفلي.

قالها وغادر.

***

ستيڤ

سلبها مني، وسلبتُ نفسي منه، لم يكن ليستحق أيًّا منا، أتعرفين يا ساندرا، لم يكن قد أماتها ذلك اليوم فقط، كان يُميتها كل يوم، ينهش منها بيديه ما لم يستطع عليه لسانه، كانت نجمة مضيئة مقارنة به، صعد آلاف السلالم كي يحظى بها، كي يمَسَّ طرف سمائها بل طرف ردائها، تملق كثيرًا، كذب كثيرًا، كان يلعب بكل شيء، يتلون كحرباء، يخفي في نفسه مَسْخًا تحت غطاء الوَلَه، فما إن أنزلتْ بنفسها في يده، أضاءتها، لمع نورها في عينه، لم يحتمل فأغلقها، أحكم غلقَ يده عليها، شد بخمس أصابعه يحاول كسرها، هي لا تنكسر، صعبة، عصية، يزيد إحكام قبضته فيتأذى هو، يصب جامَ غضبه عليها، فيرتد غضبه عليه، أما هي فكانت مُحِبة، لم يكن ليتسرب إليها ذاك الخبث، هي لا تفهمه، لا تعرفه، لا تهضمه، وكنت أنا، لا أعرف أن وجودي كان نقمة عليها، لو كنت أعلم لما ألحقت بهاء عناء لا تستحقه، هي أحبتني، لم أكن وحدي في قلبها، بل أحبته، أضعفها حبُها، أضعفها يا ساندرا، وأنت مُحِبة مثلها، لا تَقلِّين عنها، لا أريد لك ضعفًا، ولا أريد لنفسي أن أصير مَسْخًا، جعلني خائفًا، وإن كنت رسولًا في محبتي وإن كنت قِدِّيسًا، جعلني خائفًا من أن أحظَى بابن، أو أن تسير في دمي جيناته فتنتقل إليه، أو إليك أنتِ، كما هي.

روكا، لورانس

كان قد هبط درجات تسعة عشر طابقًا ليستقر أمام نافورة الحديقة القرن أوسطية، أحاطه سرب من العصافير الزرقاء، لحقت به كنت أردد في حالة هذيان:

– أُعِيدُ إليه ماذا؟

أي شيء يهذي به هذا الغريب؟! أي حظ سيئ جمعني به في يوم ماطر أحبه؟! كنت أستعد فيه لأشياء هو ليس من ضمنها.

وصلتُ وقد تقطعت أنفاسي فكنت خلفه كان كمن ترك نفسه يغتسل بماء السحب، بدا هزيلًا، أخاله يخفي دموعًا تحت سكب المطر، اقتربت منه ولست أفضل حالًا منه، لا زال يُذهلني كمنذ أن التقيته، هطل عليَّ بوابل من التناقضات، أربكني، أزاحني عن صراط مستقيم أسير عليه منذ سنين، إنه يعرفني، فأكذِّب نفسي، من أين له أن يعرف أي شيء؟ أَنفُض أفكاري، أُغرِقها كمرج الأعشاب الصغيرة المحيطة بي فأنادي وأخال صوتي مختنقًا بينما أخفي هاتفه بيدي في طيَّة معطفي وتنام يدي الأخرى عليها في اتجاه معاكس فأنا أرتجف على أية حال فأسال:

– أي، أي طفل أعيده إليك؟

أشار بسبَّابته على صدره في حركة مترددة:

– طفلي أنا، لم يعد برفقتي، هو أحد مسروقات القدَر يا روكا.

لا زلت لا أفهم ما يتفوه به لعله أصبح ثملًا على نحو مبكر، أو أن سجائره تحمل بداخلها مادة مخدرة من أي نوع.

– هل مات؟

تساءلتُ وأنا أُبدي أسفًا لما قد أسمعه فأجابني بينما زَفَرَ بخارًا باردًا يخالف حرارة كلماته:

– بل خُطِف.

ساندرا، ستيڤ

كانت قد أمعنت في سماعي، ربما لم ترمش، نهضت من جانبي، سارت على بعد خطوات مني، كانت ستهوي على الأرض لولا أن سبقتني يدي إليها فأمسكتها.

– أعتذر عزيزتي.

قلتُ ذلك وكانت قبالتي بشكل مباشر. كانت تتجنب النظر في وجهي، لم أعلم إن كان خجلًا أم عتابًا، لم أكن لألومها على شيء وإن ألقت بي من فوق الجسر، قالت وقد كانت كمن يهذي:

–نعم، نعم أنا مَن دفعتِ الثمن، أنا من أدفع الثمن، أنا، أنا، أنا أدفع الثمن.

– عزيزتي؟

– إياك أن تقترب.

***

لورانس، روكا

يمر الناس من حولنا، يعززون فكرة أن كلًّا يسير في طريقه، لا يلتفتون لأي شيء، أرى حيواتهم بكل ألوانها، ربما ليس بشكل واضح، هناك لون مشع يتقدم لشابة فرحة تهرول، تحمل بكلتا يديها صندوقًا بغلاف وردي وشريط زينة أحمر، تضحك فتعيد رأسها بشعرها الحريري للوراء فتعيد النظر لهديتها لأكثر من مرة بينما لا تزال تركض بكعبيها الرفيعين، فأخال أنها أخفت فيه شريط اختبار حملها وقد رسم خطين إيجابيين لتفاجئ به شخصًا سيغدو أبًا بعد تسعة أشهر، بينما اصطدمت بدرَّاجة نارية لعامل توصيل شاب ما كان ليغازلها لولا أنها أسقطت علب أجنحة الدجاج المقلية فرددت عبارات الاعتذار غير آبهة بالجرح الذي أصاب أسفل ساقها النحيل. شعرت حينها أننا هنا وحدنا، لا أحد ينظر إلينا، أنني هنا وعلى خلاف كل الشابات، أقف، برفقة رجل أراد مني إعادة طفله.

- أين هو؟

قلتُها بحدة ما أحببتُها يومًا.

- مع اليونانية الجميلة.

نبتت عني ابتسامة فيها شيء من السخرية على وجه مبلل:

– هل تريد مني أنا إعادة طفلك أنتَ مِن أمه هو؟

– لا شيء من هذا مضحك.

– يبدو أنك تسخر مني، أليس هذا واضحًا؟

– لا، لا قطعًا، لست ذلك الشخص.

أنظر في ساعتي، الوقت ينفد، عليَّ الاطمئنان على طفلي أنا لكنني أقول كمن يسأل:

– ألهذا السبب قد قامت بالاتصال بك بلا كلل وأرسلت رطلًا من الرسائل تتوسلك فيها للرد عليها وتهدد بلهجة حادة، بينما كان هذا الذكي في حقيبتي أفكر أنا كيف أعيده إليك بينما أنت لا تفكر بشيء سوى التهرب منها؟! أي منطق تفكر به؟

– أفكر بمنطق الأب، بمنطق العاشق، بمنطق الحائر.

– وماذا إذن؟

– أخشى أن تهتز صورتها في عينيه بينما هي.

– بينما هي ماذا؟

أجاب وقد كان ينظر للفراغ:

– لا تتقبل كونه ذكرًا.

ساندرا

ركبت سيارتي، صببت جام غضبي على مِقود القيادة، إنه يكاد يُعتصر تحت يد بأظافر منمقة طليتُها بالوردي الداكن من targez، تركته وحيدًا، ينادي بصوت تبدد تحت صرير الإطارات القوية، ابتعدت عنه، ابتعدت أكثر، أراه من مرآتي الجانبية، إنه خائر القوى، أملي على قلبي أن يقسو، لا أظنه سيقسو الآن، لا شيء يقسو في دقائق، أنا آراه قد تراجع، فأغير مساري، أعود إليه، أقترب إليه، صرت بجانبه، لم أغلق زجاج نافذتي، ناديت:

- ستيڤ، هيا الآن.

- إلى أين؟

- إلى حفل الدار.

لورانس، روكا

– ماذا؟ لا تتقبل كونه ماذا؟

أعاد ظهره للوراء، أزاح جبلًا قد رزح عليه منذ زمن لا أعلمه، ها هو ينطلق في حديثه، انتظمت أنفاسه، يمد ذراعيه على طول الكرسي الحديدي، بدا كصقر مسالم، أنظر إليه وقد عادت إليه هيئته المريحة التي كنت أراها، كان يرمش بشكل أبطأ من ذي قبل، يزم شفتيه دون عصبية، يشهق أنفاسه عبر ثقبين واسعين في أنف مدبب لكن بشكل أكثر راحة، سمح لي ذلك بفرصة الارتياح مثله، لم أرده أن يجيبني على الفور، على الأقل في هذه اللحظة، عدت بظهري، أغمضت عينيَّ، سكن العالم، أشعر بنبض قلبي فقط، ربما وقلبه أيضا، هي لحظات قول الحقيقة دائمًا، لحظات المكاشفة دون تورية.

– يا لِجمالكم أيها الثنائي! يبدو أنه يوم حظي، أنتم الأجمل على الإطلاق.

قالها بفرنسيته الرقيقة مصورٌ فوتوغرافي شاب مرح، غلبت عليه هيئة كلاسيكية، قبعة بيريه مائلة وسيجارة لم يشعلها على حافة شفتيه، يمسك بآلة تصوير فورية، ليصور ثنائيات حقيقية تحت المطر. دافعتْ عن نفسها وقد تفاجأت به نافية:

– لا لا، نحن لسنا معًا، نحن فقط...

قاطعها بإنجليزية فرنسية عذبة:

–أنتما الآن معًا، ڤوالا، انظري للصورة جيدًا، أنتما معًا بشكل جميل ومذهل، حتى انظري.

نظرت لصورتهما، ثم للورانس الذي ما كان منه إلا أن ابتسم ابتسامة لم يكن وقعها على قلبها سهلًا رد عليه بفرنسية متمكنة:

– شكرًا لك، يبدو أنك لا تدرك كم نفعتني اليوم!!

أجابه غامزًا إياه.

– هذه الآلة خُلِقت لجمع الناس، وإن لم يريدوا.

وركض عائداً ملوحاً لنا بآلته الصغيرة ، متمنياً لنا يوماً طيباً ليغيب عنا إلى ما وارء الغيم.

لا زلتُ أمسك بصورتنا معًا، فتساءلتُ:

– ماذا قلتَ له أيها المتحدث الفرنسي اللبق؟

–أخبرته أن صورتنا حقًا جميلة.

***

ساندرا

عدنا وقد سلكنا طريقنا في مدة أقل من عشر دقائق، قدت بسرعة جنونية، لم يكن لشيء من شأنه أن أخلف عهدًا مع أطفال بانتظاري، لم يكن بمقدوري ألا أكون أمهم لهذا الشهر، وصلنا دون أن يحدِّث أحدُنا الآخر، صمتنا كما اعتدنا في لحظات الخلاف، ترجَّلت من سيارتي قبله، فتحت صندوقها الخلفي، كانت صناديق الهدايا التسع تناديني، نسَّقتها على نحو مبهج خمسًا باللون الأزرق وأربعًا بلون الزهر، نقشت أسماءهم على بطاقات المعايدة الكرتونية، شرعت في حملهم معًا، لم يكن ليدعني أن أفعل ذلك وحدي، وإن عرض عليَّ رجل الأمن الطويل واللطيف بزيه المغري لفتيان الدار أن يجربوه المساعدة، لحق بي ستيف، حاول تهذيب هيئته كيفما كان، لم يكن سيئًا كحاله على الجسر، كان وسيمًا في نظري على أية حال يكونها، كان يعلم هذا لذا لم يكن مهتمًّا كيف يبدو لأي شخص عداي، بحركة يد لطيفة شكر فيها رجل الأمن على بادرته ليحمل عني ثمانية صناديق من أصل تسعة، كنت رفضت حمله لآخرهم.

– لا زلتِ جميلة، رقيقة يا ساندرا.

قالها دون تكلف، دون رياء، هو يعنيها حقًا، فما إن هبطت مغازلته

اللطيفة على سمعي حتى أشرقت ابتسامة مني دون أن أريه إياها لتخفيَ عُبوسًا خشيت أن يزعج أيًّا من فتيان الدار.

– مرحبا سيدة ساندرا، أهلا بك سيد ستيف.

همس في أذني، ها هي سيندي كروفورد الأنيقة، كانت تلك مزحته لمديرة الدار السيدة "شارون هيدج" كانت هالتها متعالية بتواضع، تعرف المزج بينهما بحكم أنها وجه لا تخلو منه القنوات التلفزيونية الشهيرة على الأقل مرتين أسبوعيًّا في برامج العرض المباشر تكيل فيها بفيض خبراتها في علم النفس وأساليب التربية الحديثة المتجددة بين مجموعة سيدات النخبة المجتمعية على طاولة زجاجية مستديرة تجلب ملايين المشاهدات لتكون عرَّابة ساندرا الوحيدة في آخر عشر سنوات. نالت مزحته استحسانها ككل مرة، وكان ذلك سببًا كافيًا كي ننال منها معاملة خاصة ومساحة أكبر في التواصل مع أطفال الدار المئة والخمسين.

– أهلًا سيدة شارون، أعتذر عن التأخير ولكن...

قاطعتني بلباقة السيدة الأولى:

–لا بأس بذلك، فالأطفال جلهم بانتظارك.

أشارت لي أن جميع ما سعيت لتحضيره للحفل قد أُنجز في غضون ساعات، وأنهم مستعدون لانطلاق الحفل الآن. كلماتها زادت امتناني بما أقوم به، غريزتي كأم يملؤها في هذه اللحظات هؤلاء الصغار حتمًا،

رغم ما تفوهت به من ترهات قبل عشرين دقيقة. ناديت بأعلى صوتي رغم الجرح فيه:

– لقد أتيت يا أطفالي، أنا هنا، أنا هنا.

كان ستيف لا يزال خلفي، أجزم أنه يدمع الآن، أنا أعرفه أكثر منه. أسرعت خطواتي، ركض الصغار نحوي، فتحت ذراعي على وسعهما، حِضني اتسع للجميع، احتضنتهم جميعًا، لا بأس إن تجعَّد ردائي، أو تناثرت تصفيفة شعري هنا وهناك، لا شيء أكثر أهمية من وجودي بينهم، هم لا ذنب لهم بمشاكلي، بنوبات غضبي، أسمعهم يهطلون عليَّ بوابل كلمات الشكر:

– نحبك ماما ساندرا، نحبك أكثر كل يوم.

بدوت وكأنهم يحملونني على أكتافهم، ساروا بي حتى مائدة تنوعت بها أشكال كيك الڤانيليا الأحمر، كيك الشوكولاتة، كيك بوندت وعلب المشروبات الغازية التي تسمح بها الدار لأجلي مرة في كل حفل تحت مظلة كبيرة فوق أرض زينها العشب الأخضر النضر ورذاذ المطر الناعم. أنظر لساعتي أراها قد مضت ستون دقيقة على قدومنا، ليتقدم ستيف من أمامه جبل من صناديق الهدايا فنادى بصوت جهوري مرح صفق له الجميع وهتفوا على صوت واحد:

– هيا لتوزيع الهدايا، هيا هيا أبانا ستيف.

تقدموا ثمانيتهم؛ جورج الكبير اللبق، ماريا عالمة العلوم المستقبلية، فيديل القس الصغير، التوأمان الراقصان كيندي ولوكاس، تيفاني بينجامين وويليام كانوا من نفس العمر، هناك أحد لم يحضر، في بداية حضورنا كان جل اهتمامي ينصبُّ على أن أظهر بمظهر لطيف وأشيع أجواءً مرحة كما اعتادوها معي، أمعنت النظر أكثر سألت نفسي: كيف لم ألحظ هذا؟ نظرت لستيف نظرة فهمها، تخطيت جموع الأطفال بيدي هديتها الخاصة فصرتُ عنده.

– أين ماغي؟ لم ترها مثلي أليس كذلك؟

أبدى تعجبًا أكد فيه قولي:

– لم أرها اليوم، لكن لعلها...

– لعلها ماذا؟

***

روكا، ساندرا

شكَّكت بإجابته، رفعت حاجبي، ظل ممسكًا بالصورة الفورية للفرنسي الحذق، فهمت أنها لن تكون معي وكأنه فهم حديث نفسي:

– لا تفكري بأخذها مني.

قالها وقد لوَّح بها مرتين في وجهي قبل أن يُخفيها في جيب بنطاله الخلفي. لم أكن لأتركه يغيظني:

– هي لك إذن، والآن هلا أكملتَ؟ ما قصتك؟ كيف يمكن أن يحدث شيء كهذا؟

– هذا كان سؤالي في كل يوم لست سنوات.

– سِت سنوات؟

– كنا سعيدَيْن، نعيش فوق الغيم فلا علاقة لنا بمشاكل الأرض، جاءتني شافية لكل ماض،كانت ذكية جدًّا، عرفَتْ كيف تدير حياتنا معًا، فهمت أنني تواقً للفرح، لنفسي، لهُويتي كإنسان كان يخلق الحيوات بفرشاة شعيراتها ناعمة وخشنة، معها لم أعرف يومًا يشبه ما قبله، اعتقدت أنني فنان لها وحدها، رسمتها بكل أشكالها، بكل فصولها، خريفها الناعم، وربيعها المنعش، لا صيف معها وشتاؤها دائماً

دافئ، لا أقول كلامًا مبتذلا بشأننا، تلك كانت حقيقة نَمَسُّها.

مسني حديثه عنها، هذا الرجل لا يكذب، شيء غير معتاد، لكنه موجود. فقلت وقد سِرنا على طول الحديقة كالمرج:

– وأين هي؟

كانت حقوقية شرسة، داخلها وحشٌ كاسر بما يخص الإنسان عمومًا، أو الطيور أو حتى أحجار الرصيف، كان تطرفها في هذا شيء بين ذاتها وذاتها، كانت تعتبر أنها تقوم بدورها من منطلق صلاحها الإنساني وأنها ما وجدت على الأرض إلا لسبب خيِّر، إنِ استحسنت أمرًا ركضت فشكرت فاعله على الفور، وإن ساءها فعله كانت لتصححه بنفسها، ذاك بعينه لُبُّ استقرارنا معًا آنذاك إلى أن...

–(شطائر التاكو الحارة واللذيذة بخمس دولارات فقط).

نادى بذلك بائع هندي أحمر، صِرنا قبالته لم يَرَ فينا مجرد عابرين، جهز لنا اثنين من التاكو الحار وقدمهما لنا دون مقابل وحتى بعد أن أصر لورانس على دفع قيمتهما، يبدو أنه كان سعيدًا لأمر ما جعله مبتهجًا بنا نحن على وجه التحديد، خفيفًا، رشيقًا يلف شطائره كعازف على أصابع البيانو بينما "The ecstasy of gold" تصدح في خلفية العربة المتنقلة.

– هذه الشطائر لذيذة جدًا، وهذا الجبن مذهل، هل أحببتِها؟

سألني وقد كان يلتهم شطيرته التهامًا كاد يُنهيها في ثوان حينما سالت بضع قطرات من الصلصة الحمراء الحارة على معطفي.

– نعم، جدًّا، جدًّا حتى أن معطفي تاق ليشاركني بها.

ضحكتُ على دعابتي بصوت عالٍ فضحك معي.

– أنتِ تعرفين الضحك؟ هذا غريب؟

ردي أسرع من رمشة عينه مع وكزة خفيفة على كتفه العريض.

– أنا أعرف الضحك جيدًا، ربما لأنه كان غريبًا عني لوقت طويل، طويل جدًا.

– إذن فلتضحكي للأبد، تمسكي به، لا ينبغي أن تُفلتِيه.

يداي تغوصان في لفافة الشطيرة فأقول.

– أنت مَن تقول هذا ؟ على أية حال لولا أن يضحك قلبي لما فعلت ما فعلته.

لفَّ لُفافة شطيرته الورقية ليلقي بها في أقرب حاوية قمامة على الطريق كمن يصوب على هدف فيصيبه تماما فقال:

– ماذا فعلتِ؟

– لن تنجح في وضعي تحت دائرة ضوء أسئلتك، نحن هنا بسببك

أنت، فلتخبرني أنت لو لا أن ماذا؟

بنصف عين مفتوحة رمقني:

– لديك ذاكرة جيدة حقًا.

عيني في لُب عينه:

– ليس الأمر بالجيد دائمًا.

***

ستيف، ساندرا، شارون

الجو صاف تمامًا الآن، لا غيمَ كثيفًا في السماء، وكان الصغار قد اندمجوا في اللعب معا دون أن يعكر تغير المناخ صفوهم، فلم يلحظوا انسحابنا من بينهم لنسأل كاميلا المتطوعة اللطيفة لرعاية الأطفال في أيام الآحاد من كل شهر دعتها شارون اليوم كي تكون جزءًا رئيسيًا من الحفل:

– عذرًا آنسة كاميلا، هل رأيت الصغيرة ماغي اليوم؟

أغمضتْ عينيها العسليتين كمن تحاول تذكرها ثم قالت:

–هل تلك الصغيرة ذات العامين؟ لا، أنا لم أعد أراها في آخر أسبوعين من الشهر الماضي.

تبادلنا النظرات باندهاش لنسأل أنا وستيف بصوت واحد:

– أين يمكن أن تكون، هل...؟

كان شعرها القصير يهتز مع كل كلمة تتفوه بها فقاطعتنا:

– أنا حقًا أعتذر، عليَّ الذهاب الآن، من الأفضل سؤال السيدة شارون عن هذا الأمر.

قالت هذا وقد منحتنا ابتسامة بانت منها غمازتاها الجميلتان على

وجه متوسط الاستدارة وناصع البياض لتغادرنا كي تتمكن من الرد على مكالمة واردة على هاتفها الذكي:

– السيدة شارون، السيييدة شارون.

قلتُ هذا وقد بدأ يلحظ ستيف توتري ليحيط كتفي بذراعه، هو يعلم كم تَعْنِي لي هذه الطفلة، فماذا لو... لو...

– سيدة ساندرا نورث.

كان صوتها خلفي مباشرة، التفتُّ وقد بان اندهاشي بحضورها لتكمل:

– أخبرتني كاميلا أنكِ لاحظتي غياب الطفلة ماغي.

– نعم، نعم كنت أريد إعطاءها هديتها الصغيرة.

– أنا ألحظ هذا، هذا لطف منك ولكن ماغي لم تعد هنا.

ما إن هممت بالتعليق على كلامها حتى أردفت على نحو أصعقني:

– لقد تبَّناها زوجان من فلوريدا، الزوجة تعمل طبيبة نسائية في مشفى خاص لكن لم تفلح أي من محاولاتها في الإنجاب طيلة خمس سنوات، زوجها رجل أعمال شهير هناك يعيشان في مستوًى اجتماعي واقتصادي رفيع، لقد أجريت وجهاز الشرطة بحثنا الدقيق عنهما، وقد صادقنا موافقين على تبنِّيها من هذين الزوجين، فانتقلت إليهما الخميس

الماضي، كانت تبدو سعيدة وقد حملها الأب الودود على كتفه فلم تَبْكِ، كان شيئًا باعثًا على الاطمئنان بشأنها حقًا.

تولى ستيف هذه المرة الكلام عني وقد بان امتعاضه على نحو لم أتوقعه:

– رجل أعمال شهير! فقط لأنه رجل أعمال شهير رمى بحسن نواياه فوق مكتبك أليس كذلك؟ أنا أجزم أنكم لم تدققوا في أي من تفاصيل حياته الشخصية.

– سيد ستيف؟

عجبت السيدة شارون من ردة فعله لترد بحزم:

– هذا شأن الدار الخاص، نحن هنا وحدنا مَن نقرر مَن يمكنه التبني من عدمه، مَن يصلح للتبني مِن عدمه، لذا أرجوك لا تمنح لنفسك صلاحية فرض الرأي على قراراتنا وإن كنت من داعمي الدار الكبار.

كنت قد اقتربت منهما أكثر:

– نحن نعتذر، لا يقصد شيئًا من هذا سيدة شارون، يبدو أنه غاضب لشيء مغاير، فلتقبلي اعتذارنا من فضلك، سنغادر في الحال.

قالت بأسلوبها الرفيع المعتاد:

– لا بأس، أنا أقدر مشاعركم حقًا، لكن هذه أشياء تحدث كل يوم

في كل مكان في العالم.

– نحن نفهم هذا بالتأكيد.

قلت هذا وكنا قد باشرنا في المغادرة فسرنا على بعد خطوتين منها فحسب حتى ما كان من ستيف إلا أن عاد مهاجمًا رافعًا سبَّابته في وجهها الوقور فأجفله:

– لن أنسَ لك هذا يا شارون.

***

لورانس، روكا

كنتُ قد تصالحت مع الطبيعة المتقلِّبة لطقس هذا اليوم، وكانت الأحداث في تقلبها قد أساءتني نوعا ما، لكن حديثًا داخلي لم يكن ليصح أن يسمعه رفيق شطائر التاكو الحارة، وجودي الفضولي هنا أتاح لي رؤية يومي بشكل مختلف لم أعتده منذ أن نام طفلي فوق صدري، منذ ليلة كنت فيها وحيدة أنجبته فيها دون خائني، أخذت قراري الفولاذي بعدها أن سيري على خط متواز مع البشر لن يزحزحه شيء، لكن يومي هذا قد ألان طبقة رقيقة جدًا من الفولاذ، طبقة رقيقة فحسب.

– مرحبًا، هل أنتِ معي؟

أفقت من شرود ذهني وقد كان قد لوَّح بيديه الجليدية حتى أطار بضع شعيرات على عيني فكابرت.

– أنا لا زلت هنا لورانس، وربما عليَّ الذهاب الآن، لا، بل عليَّ الذهاب فورًا.

– ولكن ماذا عني أنا؟ ماذا عن كاميني أو حتى هاتفي؟

قالها وقد حاول إيقافي:

– أنت تعرف في أي مكان أكون، أليس كذلك؟

قلت ذلك وقد نجحت في إيقاف سيارة أجرة سريعًا انطلقت كالبرق.

- ولكن يا روكا.

***

روكا

شكرت سائق السيارة كونه كان أكثر هدوءًا من قِط نائم، فنزلتُ وقد أغرتني نداوة العشب الأخضر لحديقتي تحت قدمي، فخلعت حذائي، شعرت بارتياح أكبر، أحب لحظات اتحادي فيها مع الطبيعة، أرفع قدمِي اليسرى، أقف على أطراف أصابعي، أدور وقد فعلتُ باليمنى مثلها، أفتح ذراعيَّ للهواء، للطقس رائحة مُسكِرة، أدور أكثر فأكثر كـــــــ " Misty coplande"، هل يرقبني السائق النائم؟ لا أهتم، سأدخل الآن لجنتي، لم يعد طفلي بعدُ، جنتي الآن فارغة إلا مني، تبقَّى ساعتان أكون فيهما أنا كما أنا، ربما لن أعمل اليوم، بل صار مؤكدًا، أرتمي أمام مدفأتي على أريكتي الصديقة، هذه اللحظات أعرف جيدا كيف أزيد امتنانًا لها، كيف أشكر الحياة أن جعلتني جزءًا منها، كان معطفي ووشاحي وكومة مفاتيحي وحقيبتي قد اتخذت من الأرض مرفئًا، ليست تلك عادتي، لكن يبدو أن اليوم برمَّته قد خالف قوانيني، لكنني سعيدة، رغم جملة التناقضات التي انهالت عليَّ دفعة واحدة، لا زلت سعيدة، لم يحدث أن فاجأني أحد كما فعل لورانس المضطرب اليوم، خصاله، كلماته، عناقه، رقصته، نفثات سجائره يبدو كشخصية روائية أحسن تكوينَه كاتبُه.

تقلبت في أريكتي، تمطأت، عيني تلمح هاتفه الأسود لمعت على

شاشته أَلسِنَةُ لهب المدفأة، اعتدلت على الفور، صرت قربه، جلست على الأرض، قمت بالتقاطه، كان فضولي تجاهه قد تولد الآن، هناك أشياء غير رسائل كاميني يمكن أن أعرفه، أمام عيني جملة من التطبيقات على خط واحد، مذكرة الملاحظات، تطبيق الواتساب، معرِض الصور، سرت خلف حدسي، فنقرت على ألبوم صوره.

ما هذا؟ لِمَ قد أعدَّ له كلمة مرور؟ هل أستسلم الآن؟ لا، سأجرب نقش عدة كلِمات: ل ور ا ن س. اللعنة، كلمة المرور خاطئة. ك ا م ي ن ي. خاطئة هي الأخرى. لن يكون على أية حال. ر وك ا. فتح المعرض على نحو مفاجئ!!!

جعلني اندهاشي أندفع للوراء، فاستندت بظهري على حافة الأريكة الناعمة، أمامي مئات الصور الصغيرة، جعلت بإبهامي أَمُرُّ من فوقهن مَرًّا سريعًا، في أغلبها صور عائلية، بنقرة خفيفة ظهرت إحداهن، إنه لورانس الابن يتوسط جالسًا أسفل أبويه ضاحكًا وقد فتح ذراعيه على وسعهما من أمام برج بيزا الإيطالي من خلفهم زمرة كبيرة من سيّاح جاؤوا لالتقاط صورة فقط، هو منهم، أراه كان يضحك على نحو مغاير.

سحبت بإبهامي صورة أخرى كان وحده مِن أمام مبنى جامعة تولوز، لم يكن يبتسم، أراه كان مرغمًا على التقاطها. تحسست أسفل

حلقي كنت عطشَى على نحو لم أستطع تجاهله، كانت زجاجتي التي صحبتها معي صباحًا قد فرغت، أنا أُسرف في شرب الماء عادة وأفرغتها كاملة من بعد الشطيرة الحارة، فقمت ولا زلت أقلب في بطن المعرض وقد تناولت زجاجة ماء على طاولة مطبخي الرخامية اللامعة بلونها الأبيض، أعادت قطراتها الباردة انتعاشي بينما وقعت عيني على صورتهما معًا، كانا كنجمين، يشع من عينه حبًّا هاربًا من الخيال، وتبدر عنها ابتسامة أجزم بأنها التي سلبته نفسه ذاك اليوم القدَري فوق الجسر، مئة صورة بعدها من ذاك النوع. على قارب كلاسيكي في البندقية في يوم مشمس لطيف يرسلان قبلة للأصدقاء، على مدرجات تشجيع فريق كرة القدم الأمريكية من فعاليات العام الماضي لكأس العالم قد زَيَّن علم البلاد وجنتيهما، من أمام قوس النصر المهيب يأكلان الآيس كريم ومن منزل عائلتها اليوناني الأزرق ، لم يكونا ليتركا أيدي بعضهما البعض في أي من الصور، هما متشابكان متعانقان على الدوام.

– يبدو أنهما يفضلان حياة الرحَّالة السيَّارين حول العالم، كانا سعيدين حقًا، لم يزيف أحدهما للآخر مشاعره، وإن كان غير ذلك كنت سألحظ ما تخفيه أعينهما فورًا، فلم أفشل في ذلك أبدًا.

قلت هذا قبل أن تأخذ الصور الدقيقة منحًى جِدِّيًّا مفاجئًا، كان لورانس يضحك بملء فيه ماسكًا بصورة الجنين النائم في رحم كاميني التي أشاحت وجهها عن الكاميرا محاولة إخفاء بطنها المنتفخة بوسادة

الأريكة. يبدو أن حكايتهما بدأت من هنا. قبل أن يقرع جرس المنزل:

– مدام دين؟

كانت هي، حضرت بجمالها الإغريقي على بابي.

– هل يمكنني الدخول، مدام ميلر؟

لم تفاجئها معرفتي بها بقدر مجيئها دون أن أمنحها عنواني بالأمس.

– بالتأكيد مدام دين.

– لكنني لست وحدي.

قالت هذا مشيرة إلى طفل أو طفلة لم أستطع بدهائي التمييز فورًا، لأومئ برأسي ترحيبًا بحضورهما في منزلي.

– أعتذر عن حضورنا دون موعد مسبق، لكنه بالشيء الضروري مدام ميلر، ولم يكن من الصعب العثور على عنوانك.

خشيتُ أن أُلحق بها إحراجًا فلم أسألها كيف أمكنها العثور عليه دون أن تخطئه وهي الآن في قلب منزلي في مواجهتي على أي حال.

– هل أحضر لكِ قهوة مدام دين؟ ماذا عن طفلتك؟ ماذا تحبين يا صغيرتي؟

قلت هذا بتحفظ خشية الوقوع في خطأ ما. لمعت عيناها:

- هل ترينها طفلة؟

- لا، نعم ، لا أعرف، أعتذر.

كان طفلًا بريئًا ذا سبع سنوات، ضللتني هيئته عند الوهلة الأولى فَرُحْتُ أُعِدُّ بداخلي بعد سؤالها. شعر أشقر طويل بضفيرتين؟ وجه ذكوري بحت؟ عينان لوزيتان ربما تشبه إحدى جديه، سترة دافئة منتفخة تطابق لون طلاء أظافره الأحمر، كانت قد فعلت ما بوسعها كي يَظهر بهذا النسق، شيء أخفى الطفل الذي كانه، هو لا يعلم هذا ببراءته، لكنه صامت، ما لبث أن حازت على انتباهه مهللًا لعبةُ الطائرة الحربية المتحركة التي تركها طفلي على منضدة الصالون الزجاجية مساء الأمس ليلعب بها قبل أن ترمقه كاميني بنظرة جعلته يُلقِي بها على الفور.

- أنا هنا لأجلها.

قلت وقد بان الشك في قولي:

- بل ربما لأجله، مدام دين.

ظهر على وجهها انزعاجٌ حاولتْ تجاوزه ولكنها أردفت:

- لورانس زوجي لم يعد يقبلنا، مدام ميلر.

لم أُظهِر أيَّ رد فعل على قولها، أحاول فهم ما تريده، فبدأتْ كمن يلقي دروسًا في التمثيل، فَعَلَا صوتُها واتسعت خطاها في منزلي:

– لم يحاول حتى أن يفهمني، إنه يلقي بكل شيء بيننا، حياتنا معًا،حبنا، استقرارنا، لمجرد... لمجرد...

تهدج صوتها وتعرق وجهها البلوري فجأة ولكنها أكملت:

– لمجرد أنني أردت لطفلي أن يُشبهني.

بدرت مني كلمة وقعها على سمعها كرصاصة:

– يشبهك؟

– هو يعلم أنني لم أرغب بكونه ذَكَرًا منذ أول صورة له في رحمي، هو يعلم أنني لم أُرد إنجاب طفل ذكر، حتى أنني لا أريد الإنجاب ثانية، إنه لا يقبل حتى أَدنى تغيير ظاهري يرضيني في شكله، أنا أعلم أنه يحبني، يحبنا كلينا، لكن هو يريد طفله وأنا أريد طفلتي.

شعرت وكأنها تهذي فقلت:

– وماذا بعد؟

لا يمكنني السخرية من أحد، لا هدف أرجوه من وراء ذلك، لكنها شعرت بأنني قد سخرت مما تقوله لترد بحدة تخالف رقة صوتها:

– لا شيء بعد، سوى أنني حضرت بنفسي كي أطلب منك المساعدة.

عقدت شعري الكثيف لأعلى فبانت عروقي المضطربة من جوانب رأسي فقلت هامسة وقد أمسكت بيدها:

– مدام دين، أراني في وضع حرج مربك الآن، أنت هنا أمامي، أقدر مجيئك حقًا، سيدة جميلة، لا أشك البتة في قلبك كأم ولا في إخلاصك كزوجة، تحاولين إنقاذ زواجك وعائلتك من انهيار محتوم، فتطلبين مني أنا أن أقوم بمساعدتك في شيء لا أعرف كيف يمكنني القيام به، شيء لا أعرف تفاصيله، أو كيف حدث ولِمَ قد حدث، والضحية هنا عداكما هو هذا الطفل الذي لا يَعِي شيئًا، هلَ تفهمينني؟

– إن أردتِ مساعدتي، دعيه يقبلُ مقابلتي، لكن دون طفلتي، ليس قبل أن يقبل بها.

زاد اندهاشي ولم أفهم السر وراء هذا التعنت في رأيها، لكنَّ شيئا جعل قواها العقلية بالنسبة لي موضع شك، فسألت:

– وهل هذا كافٍ لتغيير موقفه الصلب منكِ؟ هذا أمر معقَّد!

– ربما، لا أعلم، سأحاول، سأحاول.

قالت هذا حين طارت من أمامنا الطائرة الحربية البلاستيكية لتضع حدًّا لنقاشها معي قبل أن تغادر ويحضر بريدٌ ورقيٌّ من جهة لا أعلمها.

***

ساندرا، ستيڤ

كان غضبه الأخير قد أعاده لحالته التي كان عليها قبل الحفل، لكن ذلك لم يكن ليُثنيني عن معاتبته:

– أي شيء هذا الذي فعلتَه هناك؟ أي خاتمة أردتَها ليوم الاحتفال؟

– عزيزتي، لم أقصد شيئًا من هذا، لم أكن الشخص الذي يفتعل المشكلات، أنت تعرفين ذلك جيدًا.

قال هذا وهو يدفع باب الزجاج العاكس لحانة سيد آشور وقد دعاني للدخول بعد أن لحقت به تاركة باب سيارتي مفتوحًا.

– لن أدخل، ليس قبل أن تحطيني علمًا بكل شيء يا ستيف.

– ما من شيء سوى ما سمعته عند الجسر.

أغمضت عيني في طريقة لاستعادة هدوئي:

– لم أعهدك مستخِفًّا بعقلي يا ستيڤ، لذا أكرر سؤالي.

قلتُ هذا وقد مرت تظاهرة لمناصري سلطات الخضار بالخس الروماني وحبوب الكمأ الممزوجة بزيت الزيتون البكر على ضلوع البقر، كانوا قد سدوا الطريق حاملين لافتات تَنِزُّ دمًا في محاولة لإثارة الاشمئزاز والنفور في قلب كل آكلي اللحوم في حيِّنا وأنا منهم، عدت

بنظري فلم أجد ستيف.

– ستيف، ستيف.

ناديت بأعلى صوتي، أين هو الآن بين مجموعة لابسي القمصان الخضراء المطبوعة بشعار Meat is murder، be vegan، تأففت من سوء الحال فلم أكرر النداء قبل أن أنطلق حامية بذراعي سيارتي المفتوحة من أن ينقش عليها مراهق بعض العبارات الاحتجاجية بعلبة بخاخ ألوان دون أن يدرك كم كلفني شراؤها، قبل أن تلمع في ذهني فكرة العودة لشارون.

***

روكا، أوليڤر

– ولدي الجميل، هيا هيا.

درت بنظري، كل شيء جاهز، ماء فاتر عذب، شامبو كي لا تدمع عينا طفلي أو يلحق أذى برموشه الذهبية، صابون برائحة اللافندر الإنجليزي واللوز، البطات المائية وأقلام التلوين على جدار الحمام، كل شيء جاهز حتى أنا، كنت كما أحبه أن يراني، حاولت ألا يعلق بي شيء من جملة الأحداث المضطربة لليوم، لكنه لم يأت.

–عزيزي، طفلي.

ناديتُ كمن تُغني في مسارح الأطفال بينما نزلت خمس عشرة درجة للأسفل حيث كان بظهره لي لا زال يلعب، اقتربت أكثر لأغمره بذراعي:

– ماذا تفعل أيها اللطيف؟ ماذا؟

– أمي، هل هذا هاتفك الجديد، إنه جميل؟

عزيزي أوليڤر لم يكن بالشخص العابث في أي شيء أمامه، لكنه وقد حاز على انتباهه بلونه القاتم وشاشته اللامعة دون خدوش فالتقطه دون تردد، ولكن لم يكن هذا بالسبب الوحيد.

– ماما، هذا الواتساب لم يكفَّ عن استقبال الرسائل، هنا رسالة ورسالة ورسالة، قالها عادًّا على أصابعه بصوته الناعس مقلدًا صوت إشعار التطبيق وانطلق مجردًا نفسه من قميصه العلوي نحو حمامه في الأعلى ليدعني وسط ذهولي بكيف اتَّصَلَ بشبكة منزلي للانترنت.

– أوليفر؟

***

ستيڤ

– لنلتق عند ريتش.

نزعت عن أذني سماعة البولوتوث كنهاية اتصال لم يتجاوز عشر الثوان مع شارون، فدسستها في جيبي وأخذت أعبُّ أنفاسًا كهارب من تحت خراطيم التنفس الاصطناعي في غرف العناية الفائقة. لا أحب هذا الحال، لا أذكر أنني كنت مضطرًا للهرب من ساندرا قبل اليوم، ولكنني أجد نفسي في غاية الاضطرار لذلك، لا رغبة لي في المزيد من تطاير الشرر بيننا، كنت أؤمن أن بمقدور شرارة صغيرة أن تتحول إلى حريق هائل يلتهم ما بيننا، لذا خير وسيلة للوقاية من هذا الحريق كانت إطفاء الشرارة الأولى، ولم يكن ليضيرني إن اشتعلت في مكان وشخص آخريْن لا سيما شارون. كان السائق قد انحدر سالكًا طريقا سريعًا، متجنبًا رذاذ الهتافات لمجموعة الصبية الباكين على ذبح البقر.

– ويكأن العالم قد خلا من مشاكله.

قال ملتفتًا لي السائق الإفريقي البشوش وقد انتظر مني التعقيب على قوله لكنني لم أفعل ليكمل:

– هذا العالَم يقودني للجنون أيها السيد النظيف، كل المشكلات تبقى مشكلات، لكن لا قدرة لي على استيعاب أيٍّ منها يجعل العالَمُ أولويةً.

كان لا يزال ضاحكًا، تستبد به الحماسة فيشد بيديه على المقود الجلدي ويكاد رأسه اللامع أن يصطدم بسقف السيارة المعاد تنجيده، أو يعود ليغمر نفسه في كرسيه وترتخي يده السميكة عن يد المكبح حين يذكر شيئًا يأسف عليه فأيقظ بداخلي رغبة مبادلته الحديث بعد صمت طويل:

– يبدو أنك شديد الاهتمام يا صديقي، لا، ربما أكثر من ذلك، أنت تلبس قناع البشاشة، لكن أجزم بأنك مثقل بكل ما تقوله.

– أصبت يا سليل النبلاء، أنا بشوش لأن رجلًا مثلي لا يمكنه شيء آخر، لا يجوز له شيء آخر، فأنا مَنِ اخترت أن أكون هذا الرجل، وذلك سر حسن إقامتي في بلد الحريات هذه منذ عشرين عامًا.

– أنت تصلح كحكيم أكثر من كونك سائقًا تجيد مراوغة الطريق والتلاعب بالسرعات كخيوط الدُّمَى.

استقبل البشوش مجاملتي بابتسامة ناصعة البياض قبل أن يقف وبفرملة حادة أمام المنزل المهيب للسيد ريتش.

***

روكا

صغيري يدندن ويركل المياه بيديه مُحدِثًا صخبًا أحبه، سمعته وقد كنت بانتظاره أجلس القرفصاء من خلفي حائط الحمام أقلب في التطبيق الأخضر عن آخر الرسائل الواردة، كانت من كاميني وكان قد استبدل كنيتها بزوجتي السابقة، في شيء دعاني أكتم شهقتي، فبأي سرعة تخلَّى عنها لورانس؟ وبضع رسائل من أبيه خمنت ذلك من الصورة الشخصية التي التقطت له من أمام كبرى محاكم الولاية، ومن "ويست" عامل توصيل البيتزا كان يشبه ذاك الذي اصطدمت به الشابة صباح اليوم والعديد من الرسائل كان من الواضح أنها لأشخاص قد وكَّلوه كمحام لقضاياهم بتواريخ أكثر قِدَمًا فلم أهتم.

– ماما، ماما، ماما.

لم يكن أوليفر يناديني ولكن كثيرًا ما كان يحب ترديد هذه اللفظة كلما كان مستمتعًا، والحقيقة أنه مستمتع أغلب وقته، أنا اخترت له ذلك. أعدت تركيزي وعدت حيث خانة الزوجة السابقة، كانت عشرات الصور والڤيديوهات قد هلت منذ صبيحة الأمس.

– ما الذي تحاول فعله هذه السيدة بهذا المسكين؟

إحداهن صورة استفزازية قد أخرجت فيها لسانها بجوارها الطفل

وقد ألبسته لباس بحر خاص بالفتيات!

- لا، لا تبًّا لهذا!

بدأت تشغيل الڤيديو الأحدث تلقائيًّا، كاميني تضع طفلها أمامها في وضعية استجواب ويردد على مسمعها بصوت ضعيف:

- أنا أنثى، أنا أنثى.

- أنتَ ماذا؟

قال مهللًا لتغمره من بعدها:

- أنا أنثى، أنثى.

***

Galveston island
منزل الأصدقاء
ستيف

أقف الآن أمام المنزل الرحب بطلَّته المهيبة والباعثة على الراحة، يوحي وبشكل مباشر أن قاطنيه قد ملكوا حسابات بنكية بستة أصفار بعد الرقم الأول، كنت ابتعته أنا وريتشارد وشارون في أُولَى قطف ثمار لعملنا، تشاركناه ثلاثتنا لوقت طويل، هنا حيث كنا نجيد الهرب من مسؤولياتنا، من أنفسنا، ومن ماضينا، قبل أن نجد أنفسنا في مواجهة لا مفر منها مع تحقيق الذات وإيجادها من بعد تِيهٍ، مع حجز وجودنا في الصف الأول من الطبقة المخملية، مَن تُفتح لهم الأبواب وتنقضي لهم الحوائج قبل أن ينطقوا بها، صرنا نجومًا كلٌّ في مجاله، يحتفى بنا كأفخر أنواع الـــــــــــ merlot على موائد الصفوة في أي مكان على الخريطة الزرقاء، وإن كان الأمر يفوق طاقتنا في بعض الأحيان، إلا أننا لم نكن في خِيَرَةٍ مِن أمرنا للتراجع، هناك أشياء ما إن نبدأها صار لزامًا علينا أن نكملها، وجريمة بحق أنفسنا إن تقهقرنا عنها.

ولجت عبر الباب الزجاجي المنزلق ذي الإطارات السميكة، كان مفتوحًا، ربما قد كان ريتش الميليونير الأعزب يقضي أمرًا على مسافة

قريبة، مشيًا دون عربته الزرقاء الداكنة بنتلي كونتيننتال جي تي، أجزمت أنه ارتدى حذاء دون جوارب، وقميصًا من الصوف الخفيف يصيبه بالحرارة على سروال قصير يكشف عن ساق كثيفة الشعر، كان هكذا قد أصابه المال باللوث، فلم يعد يكترث لأي شيء، متخليا عن أي مظاهر شكلية معيقة له وإن كان سيخسر مواعدة امراة كـــــــــ "ريس ويذريبسون، لكنه لم يفلح أن يتخلى عن كونه خفيف الظل، محبًا للمرح، محبًا لي ولشارون رغم السنين التي غابت فيها عن المكان لتعود وهي تحمل اسمًا لامعًا غير التي كانت عليه قبل أن نقتني هذه الڤيلا في قلب الماء.

– يا إلهي. يا إلهي.

كان أول ما نطقتُ به حين خطتْ قدمي المكان، إنه ريتش، هو ذاته لا يتغير، قد ملأ المكان بأشرطة الڤيديو لأڤلام ستحتفل باليبويل الذهبي عما قريب، يفتح شريطًا ويرمي بآخر، فوضى تصيبني بالكآبة وتنعشه هو كمنتج أفلام الحروب والسير الذاتية للقادة والمتمردين في تناقض صارخ مع شخصية مؤدي أصوات أفلام الكرتون للأطفال. كنت بدأت في لملمة بعض الفوضى من حولي، أردت من ذلك فسح المجال لِرِدْفَي الراحة على الأريكة الأطول في الصالون المضاء بالشمس المختبئة خلفَ غيم الخليج. ترك هدوء المكان دون صخب صديقي ريتش وصوت المحيط الهاديء للنعاس فرصة التسلل لعيني فنمت

دون أدنى مقاومة حتى حضر وقد كان يدندن كعادته:

I need your love..

I need your love..

God speed your love to me..

– هولا. هولا. صديقي الوسيم هنا.

حضر حاملًا مكونات شوربة الفواكه البحرية، بكريمة الطبخ الكثيفة في يد وزجاجة شاتو مارغو في اليد الأخرى، لا زال يحافظ على مهارته كطاهٍ محترف كان يقسم أن "جيكوب كينير" قد تتلمذ على يديه، وكنت أعلم أنها محض دعابة أطلقها فصدقها بمرور الوقت.

– كان عليك إخباري بقدومك أيها الشقي.

أجبتُ وقد اعتدلت فكان من السهل أن يسمع صوت عمودي الفقري كمطرقة.

– لا عليكَ، لا شهية لدي لمشاركتك تحفتك الفنية.

– يا إلهي.

قالها بنبرة قد استشف منها أنني يائس غاضب وهو المندهش دائم الصخب.

– أحب سماع الشكاوى بينما أطهو، لا سيما منك، لم تفشل في جعل نكهة أطباقي أشد لذة منذ أن عرفتك.

قالها مازحًا بينما شمَّر عن ساعديه واتخذ مكانه ومشترياته وراء منضدة المطبخ الرخامية الهلالية الشكل.

– أخبرني، ما الذي جاء بك إلى هنا؟

– هذا منزلي كما هو منزلك.

أجبت بينما أفرغتُ نصف قنينة ماء كانت قبالتي في جوفي.

– هل أبدو كمَن يُنكر هذا؟ انظر إلى عيني الباكية، انظر إلى قلبي كم حطمته!

– كف عن المبالغة، كما أفلامك.

بدرت عنه ضحكة مدوية وهو يفرغ محتويات الكيس البحري في قِدْر متوسط الحجم:

– أفلامي؟ هل قلت أفلامي؟

–نعم هي كذلك مبالغ فيها، حتى في حجم إيراداتها، أعشق هذا النوع من المبالغات.

– الذائقة الفنية في انحدار.

قلتها مازحًا حين جلست على كرسي الرخامة الطويل.

– صدقا، أراك لستَ في أحسن أحوالك، أستطيع شمك كـــــــ Rex k٩ .

– إذن عليك التركيز على حسائك أيها الـــــــــــ rex.

– لا أصدق ما أراه، شارون؟

ريتش

– لا لا لا، شارون، شارون، ما بك؟

– ماذا تظن نفسك فاعلًا أيها الأحمق؟

صرختْ بينما أشارت بسبَّابتها وقد قدمت تهاجم ستيف الذي قفز عن كرسيه كنمر، فوقفتُ بينهما مشرعًا ذراعيَّ خشية أي تطاول بالأيدي لا يحمد عقباه، في شيء لا أنساه لشارون حينما تجرأ خطأً بعض المتسكعين من أبناء الثانوية على مغازلتها غزلا فاحشًا.

في رد هجوم مضاد انتفض ستيف في وجهها:

– أنت شمطاء خائنة، خائنة حتى لنفسك، لضميرك ولي، ألقيتِ بالطفلة، لا، بل قمتِ بنفيها في مقاطعة أخرى ولأجل ماذا؟ لأجل ماذا؟ هل أبدو لك وساندرا بلا قيمة؟ هل عمدتِ على تحطيم قلبها عمدًا؟

حاولتْ إلقاء زجاجة الشاتو مارغو وقد استبد بها الغضب قبل أن أمسك بيدها وأجثو على ركبتي أن دعيها بحق السماء لتلقي بقنبلة لم تعلم أنها ستنفجر بها وحدها.

– وما شأنك أنت؟ ما شأنكما أنتما بالطفلة؟ إياك وأن تفقد حذرك

معي يا ستيف اللعين! إياك أن تنسى أنك لن تشتري بشرًا بثروتك! كن خيّرًا ولا تكن تاجرًا يا ستيف.

كنتُ قد سحبت نفسي من بينهما وعدت لأكمل طهو حسائي الذي أوشك على الاحتراق، فلن يكون هذا الشجار الأسوأ بينهما على أية حال.

– لا أكون تاجرًا، تخبرينني أنا ألا أكون تاجرًا، حسنًا، وقد فعلتِ هذا بنفسك، فلن تري مني الرجل النبيل، سترين ستيف اليتيم الذي عاش حياته في الدار التي ترأسينها الآن، وسترين نفسك معي الفتاة اللقيطة التي ولحكمة ما جمعنا لأجلها القدَر فكنا أصدقاء وأثرياء.

صرختْ في وجهه، وقد اخترقت عيناها البحريتان عينيه:

– اصمت، اصمت، إياك وأن تعيد فتح التاريخ!!

قال وقد شعر أنه أمسك بسيف سلته هي فألقت به في يده:

– أنتِ مَن افتعل هذا، تقفين وتسردين عليَّ عظاتك كراهبة! ولكنك أنتِ أشد سوءًا من أي شيء رأيته في حياتي، أنت أكثر شرًا من أبي الذي أغرق أمي وجعلني شاهدًا على قتلها فأودعته في السجن مدى الحياة، أنا أعرف ما تخفينه يا شارون، أعرف كل شيء.

وقفت شارون كمن أصابتها السماء بصاعقة فألجمتها ودعتها بلا

حراك أمام ستيف الثائر فأكمل:

– في عشر سنوات كاملة من حياتك قد غيبتِ بها نفسك عمدًا تحت ذريعة الدراسة في السوربون، حصلتِ فيها على أعلى الدرجات، وحصلت أيضًا على طفلة لم ترغبي بها، لم ترغبي بروح أخرى تعيق مجدك، أخفيتها عن الأنظار، لم تسيئي إليها، لكن لم يكن بمقدورك الاعتراف بها أمام جمهور المصفقين وراء الشاشات، أودعتها في الدار كطفلة لقيطة مثلك فلم يسأل أحد مِن أين أتت، قمتِ برعايتها عن بعد، كنت تقومين بزيارات شهرية كالتي نقوم بها أنا وساندرا بدافع حب محض، كنتِ أمامها طيلةَ الوقت، حتى تمكنت من الفوز برئاسة الدار بعد السيدة كاميلا مورغان، كانت هي قد نضجت وأصبحت امراة يمكنها العيش باستقلالية خارج أسوار الدار وأسوارك، بإمكانها بدء حياة جديدة أكثر استقامة منك، أكثر محبة منك، وقد كان، سافرتْ إلى ليون، عاشتْ هناك وزوجها الفرنسي الذي كان مع زمرة السياح هنا فأحبها، ولكن سرعان ما عادت إلى هنا في أحشائها طفلة كما أنتِ، وحيدة محطمة بلا مأوى، بلا عمل، بلا شيء، لم تعرفي كم كان هذا الحمل شديد الصعوبة! كيف كان قيؤها يملأ المكان، كيف لأصابع الغثيان تحكم بقبضتها على جوفها، فتنام لأسابيع دون طعام، تختنق بلعابها المر، لم تكوني معها في أي شيء يا شارون، لكن أنا فعلت، أنا فعلت أيتها القديسة، أقحمت نفسي في حياتها عمدًا، فكنتُ لها أبًا، كنت لها أمًا،

آويتُها هنا في هذا المكان، كانت تقف حيث تقفين، أنت تبثين سُمَّك في وجهي، فتسألينني بكل وقاحة: ما شأني وطفلتها! شأني أن ميلادها جاء بين يديَّ أنا، في ليلة كان مخاضها مُميتًا، سال دمها فلطخني بكاملي، ولكنني كنت معها دونكِ، كان هذا الأبله ذو الحساء معها دونكِ، على هذه الأريكة التي غفوتُ عليها قبل حضورك عديم القيمة هذا، فلا تنظري إليه، لا تنظري بقبحك في عيني، رفضتِ إخباري مَن يكون والدها الفرنسي، رفضتِ حتى النهاية، لكنها وبخلاف أي شيء، ابنتي يا شارون ابنتي، فلَم تستطيعي حتى التفكير من أين أتيتُ بها إليك، كيف كانت معي أنا دون غيري، كيف التقطتُها من جانب حوض السباحة في المنزل الذي ابتعته لها فأنهت فيه ابنتك حياتها بعشرين حبة مضادة للاكتئاب، كنت أنت وحدك السبب فيه، حين علمتْ بطريقتها أنها لم تكن يومًا لقيطة، أنها لم يكن عليها أن تحيا دونك في أشد مراحل نشأتها حساسية، كان لديها إحساس تجاهك لم تستطع تجاهله وقد صدق، فأخبرتني فلم أندهش، جعلتِ منها مريضة لا ترى في الحياة من لون غير الأسود، أما أنتِ فلم تجرئي على الاعتراف أنها ابنتك فأنكرتها للمرة الثانية، نأيت بنفسك عن مراسم مواراتها الثرى، كنتُ فيها أَنا وريتش وساندرا المخدوعة بمثاليتك فقط، أما الآن وقد علمت بكل شيء، أعيدِي لي ابنتي.

***

روكا

مساء اليوم التالي

كان النوم قد جفا عيني الليل كله وجلُّ ساعات نهار اليوم، لكنني الآن في مطعمي الأشهر في River aoks أرقب جموع المتلهفين لقائمة الطعام الجديدة بعينين متورمتين، شيء لا أحبه حقًّا، لكن كان لسبَّابتي ميزة أعادتها لطبيعتها بعد تدليك خفيف بزيت جوز الهند، حيلة تجميلية سريعة تعلمتها من مدربة يوجا الوجه الموثوقة Adreien mishler، شيء طبيعي لا زال يعمل في عصرنا الكيميائي هذا. مرت ساعة أحاول سلخ نفسي عن أحداث الأمس، أُجري اتصالات تأكيدية لمورِّدي اللحم السويسري، أعيد الاتصال بساندرا خمس مرات بلا جدوى، أُبدي إعجابي بسلاسة الأمسية ورضا الزبائن، أطمئن على جودة تركيب زجاج باب المطعم العريض ونوافذه صباح اليوم، لكن لا شيء من هذا أنساني وقع الڤيديو بالأمس في شيء برهن لي فعلة لورانس الهارب تحت المطر، كانت تلك القطرة التي أفاضت كأسه، حتى إنه لم يدرِ ما الذي عليه فعله سوى الهرب من كمَّاشة الاختيار بين محبوبته وفلَذة كبده ذي اللباس البحري الأنثوي.

– مدام دين، هناك مَن طلب حضورك على الفور، يبدو أنه...

– شششششش فهمت، أنا آسفة، يمكنك الذهاب.

لم يكن بوسعي إجهاد نفسي حتى بسماع صيغة خطاب رسمية.

– أين حبوب إيبروفين؟

قلت هذا لنفسي بينما سرت بين نضد الزبائن فاستقرت عيناي عليها لتفعل هي بالمثل، هممت أن أنسحب ولكنها نادت:

– أختي.

كنت أستطيع ادِّعاء أن ذلك النداء ليس لي، حتى كررتْ نداءها على مسمع زبائني ومَرْآهم فكنت أعلم أنها لن تتوقف عن إحراجي حتى أستجيب.

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟ كيف تجرؤين على...

قاطعتني:

– سامحيني، أقصد سامحينا.

وقع كلماتها أشعرني بالاختناق.

– لا شيء من هذا يستحق الحديث عنه، لذا غادري.

– ولكن يا روكا...

كتمتُ غصَّة أحرقت جوفي فلم أظهرها لها، لن أُريها في مملكتي سوى

قوتي، قبل أن تُحدِث جَلَبَة داخل مطعمي، الناس من حولي يتراكضون، حالة هيجان كبيرة، أحدهم يرفع هاتفه الذكي ويردد: أين حدث ذلك وكيف؟ هل تسمعني؟ اللعنة، هل تسمعني يا كوش؟ وسيدة أخرى أصابتها نوبة هلع مفاجئة سكبت مشروبها الغازي على ثوبها الساتان فأخذت ترتجف وتختنق مرددة قولها:

– حريق، حريق ضخم في برج " wells fargo "، آه يا عزيزي مارس.

– لا، لا: برج wells؟ اللعنة، اللعنة يا لورانس، ماذا فعلتَ ماذا فعلت؟

قلت هذا قبل أن أغادر كل شيء في حالة هستيرية وأذهب إليه.

– اللعنة، كاحلي، ليس الآن؟

أركض بقدم واحدة منذ خمس عشرة دقيقة، تعطلت فيها حركة المرور، طابور من سيارات فورد، وشيفروليه، وسيارات الأجرة الصفراء والسوداء، وقفت خلف حشد من شاحنات الإطفاء وسيارات الإسعاف والشرطة التي طوَّقتِ المكان، ومنعت حركة الدخول والخروج من المكان إلا على مصابي الحادث المجهول السبب والناجين من مخرج الطواريء في البرج فصرخت باسمه:

– لورانس، لورانس، لن تكون من بين المصابين في المكان، أين أنت

من بين الناجين؟ لن تموت الآن وقد طلبت مني مساعدتك، لن تموت قبل أن أعيد طفلك، لن...

- روكا؟

إنه هنا، طوَّقني بسترته الدافئة برائحة السيجار وسار بي بعيدًا عن صخب الكارثة ورائحة الدخان السامة، كنت أرجف، كنت خائفة، لكنه هنا، ليس من بينهم، لم يسرقه القدَر، وقد كان يُسرق منه، أنصفه هذه الليلة فقلت:

- أنت بخير حقًا، أنت بخير...

كان يسعل بشدة كأنَّ جرحًا يتفتق في حنجرته، رد بسؤال جريح:

- كنتِ قلقة عليّ؟

شحت بوجهي خجلًا فبررت:

- هذا ما كنت سأفعله مع أي شخص في موقفك، الوضع مؤسف بحق الجميع، ألا ترى الـــــــ...

- هل كنتِ ستأتين راكضة لأي شخص؟

- جديتك تخبرني أنك متورط في الحادث، قلت مازحة.

- لم أصل لهذا الحد من الجنون بعد.

– هل لديك نية للجنون؟

كان لسؤالي القدرة على استفزازه فخلع عني سترته في تصرف صبياني مضحك منه، حتى بزغ من خلفنا صوت لاهث نعرفه:

– لورانس عزيزي، هل أنت بخير؟

إنها كاميني جاءت هي الأخرى لأجله، كانت قلقة بشكل أثار استياءه.

– ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟ هل تراقبينني؟ ما الذي تحاولين فعله في نوح؟ أنت لستِ هنا لأجلي.

صرختْ وقد تخلت عن وداعتها:

– كيف تعرف هذا؟ كيف أيها العاشق؟

– لم نعد يا كاميني، لم نعد، أنتِ مَنِ افتعلت هذا، كنا عائلة مثالية حتى قررت أنتِ تدميرنا جميعًا، سكبتِ محبتي في حاوية أهوائك، لكن الأمور لا تسير بهذا الشكل، لم تدعي لنا فرصة لأي حل، عندما يتعلق الأمر بطفلي أنا، لا حل، لا حل يا كاميني.

قلت وقد حاولت تخفيف حدة الموقف حين توقفتْ إحدى إمدادات الدوريات الشرطية لتعزيز الأمن في المكان قبالتنا:

– عليكما الهدوء الآن، الأمر بينكما معقد للغاية، وبما أنني ارتضيت

مساعدتكما في هذا الأمر ربما عليكما الاستماع لي.

– أعتذر لأجل توريطك في هذا الأمر، لكن الوقت أصبح متأخرًا جدًّا، ستَمْثُلِين للمحاكمة يا كاميني، لن تستطيعي الهرب ثانية، وأنا وللمرة الأولى سألقي بريشتي وأرتضى دور المحامي طواعية فقط لأجل طفلي، لن تسرقيه مني، ولن تسرقيه من نفسه.

– لن تنال شيئًا مِن هذا وإن مِتّ.

قالت قبل أن تلقي بتحديها أمامنا وتغادر:

– سنرى.

***

ريتش، ستيف، ساندرا

– لقد جعلتَ من حقيقتها عارية أكثر من أي وقت مضى، لقد كنتَ وغدًا وإن لم تكذب بحرف واحد.

– أكره منك دور الناصح يا ريتش بقدر ولعي بأطباقك، لذا دع عنك هذا.

– ولعُك بأطباقي أنا؟ إليك إذن هذه الفاتنة بين يديك.

قالها مبتهجًا بينما اغترف لي غَرفة واحدة في طبق عميق.

– رييتش، لن تكف عن كونك بخيلًا.

– لستُ بخيلًا، وإنما لن تقدِّر هذه التحفة إن سكبتُ لك دَلْوًا منها.

أومأتُ برأسي وقد فهمته:

– نظرية less is more، يُعجبني هذا.

قلتُ ذلك بينما تركت صوت هذه الآلة التي لا أحب استخدامها ليصدح للمرة السابعة على التوالي دون رد:

– لن ترد؟

– لا.

– لا تدع نيران ساندرا تأكلها.

قلت نافيًا:

– لست أفعل، ستهدأ من تلقاء نفسها، سأكون أكثر حماقة إن اقتربت من نيرانها الآن، اليوم أسوأ أيامها على الإطلاق.

– قد أبدو لك تافهًا لا أهتم إلا بأفلامي وبتقطيع أعواد الكرفس مغمضًا عيني كطاهٍ محترف، لكن ما مِن فيلم أسوأ مِن تركها وحيدة، اليوم تحديدًا وقد أخبرتَها بكل شيء عنك، عن أبيك القاتل، عن شهادتك التي أودعته في سجنه مدى الحياة دون أدنى إمكانية للإفراج عنه تحت أي سبب كان.

– لستُ أقسو عليها يا ريتش، إنما لحاجتي أن تهضم ما قلته، أن تعرف كيف ولِمَ لن يكون بيننا طفل، عرَّيْت حقيقة خوفي أمامها، أخبرتها أنني جبان، كَيف ترك لي ذاك السجين نُدبة بين أضعلي لا تبرأ أبدًا.

– لن يكون بينكما طفل؟ إذن ما حاجتك بحفيدة شارون؟

ألجمني سؤاله، فتركته دون رد بينما لوَّحت له بيدي مودعًا إياه وحساءه أفكر في ما قاله.

***

روكا، لورانس

كان الهدوء قد خيم على كل شيء؛ لا أثر لسيارات الإسعاف أو الحشود التي أغلقت الطريق كنا وحدنا وصفوف المنازل النائمة.

– لا داعي لأن تقوم بإيصالي.

– ليس في حالة قدمك تلك.

– دعكَ من قدمي، ما الذي تنوي فعله؟ أجد نفسي بين مطرقتك وسِندان كاميني، كيف يمكنني مجابهة قلبها كأم أمام حرصك أنت كأب في وجود طفل لا يعِي أيًّا من ثأركما لبعضكما البعض.

– قلبها كأم؟ قلتِ قلبها كأم؟ قلبها الرافض لجنس طفلها الأوحد؟ مَن تضع له أحمر شفاه وتجبره على أن يكون شيئًا ليس هو؟ تجعله مضطربًا خائفًا ألَّا يرضي أهواءها؟ هل أنتِ معي؟

– سآخذ هذا الاتصال، عذرًا.

قلت هذا مبتعدة عنه فهمست:

– عزيزي أوليفر، لا تقلق، أنا بخير، لن أتأخر، لا تنس إقفال باب المنزل جيدًا أحبك، أحبك أكثر مما تحبني، أقبِّلك.

أقفلت خط هاتفي سريعًا وعدت:

– لورانس، لن تستطيع النوم في شقتك اليوم، لذا إن كنت لن ترفض، أعرض عليك النوم في غرفة مكتبي في المطعم، لليلة واحدة فقط.

تفاجأ من عرضي، وفكَّر به لثانية فلم يرفض، حيث لهول الحدث وسرعة التهام النار لِستِّ شُقق فوقه مباشرة لم يكن قد تمكن من جلب أي من بطاقته البنكية أو هويته الشخصية ليحجز غرفة في إحدى الفنادق القريبة.

– حسنا، أنا أوافق، أقدر لك هذا.

ليوقف لي وله سيارة تاكسي وراح يفكر في آلام ظهره جراء نومه على أريكة من الجلد طيلة الليل بينما سأنام أنا على سريري.

***

منزل ساندرا وستيف

لا زلت أفكر في ما قاله ريتش، أنا أثق به وأخفي ثقتي بآرائه خوفًا من أن تبتلعه نرجسيته، لا عجب في أن أفلامه هي الأكثر مشاهدة وتتهافت القنوات التلفزية على شرائها على غرار تصدرها للمركز الأول خلال مواسم الصيف كلها، دائمًا ما كانت له فلسفته الخاصة، يبثُّها ولو من خلال جملة من سطر واحد تجعل من فيلمه هو الأفضل والأكثر رسوخًا في الذاكرة، ذاكرة الناس وذاكرة التاريخ.

لذا لم يكن ليضيرني كونه مبذِّرًا أو بخيلًا يشتري زجاجات نبيذه كالماء، فهو صديقي الذي أحبه بأي شكل كان، ربما لا يعلم هذا لكن بما أنني حقل تجارب لوصفاته فهي إشارة تكفيه لذلك. لذا كانت كلماته الأخيرة لي سببًا في أن أقف على باب منزلي وساندرا، جاهزًا وإن كنت مرهقًا ورائحتي نَتِنَة ككلب لأي مواجهة، فأدرت مفاتيحي في ثقب الباب فصرت بداخله.

– عزيزي ستيف، أنا أعتذر، أنا، أنا لا أكرهك، أنا، لا زلت أحبك، هو فقط... فقط...

عانقَتْني راكضةً كطفل ينتظر أباه، تعلقتْ برقبتي باكية فاختنقت بجوفها الكلمات:

– ما الذي يُبكيكِ الآن؟

– أبكي لأجلنا، لكلينا، لي ولك، لحرمانك من أمك ولحرمان أحشائي من أي مضغة، فأنا أيضًا شقَّت سكاكين الألم قلبي لسنوات مثلك، لكن اصدقني القول يا ستيف: هل كنتُ أنانية معك؟ هل أثرت أوجاعك؟ لكنني لم أفعل هذا استهانة بك، أقسم بأنني لم أفعل.

شهقت أنفاسها ومسحت أدمعها:

– لا يمكنني أن أفعل هذا بِكَ. لم أعد أريد أي طفل إن كان الثمن خسرانك.

***

غرفة المكتب

الساعة الثالثة فجرًا

كيف ورطتُ نفسي بأمر كهذا، ظهري يستغيث، اللعنة يا روكا! لكن شكرًا. نهضتُ وأخذت أتحسس الجدران الأربعة؛ بحثًا عن أي قابس للكهرباء، كان بجوار الباب الزجاجي العملاق. لمَ قد تصمم بابًا بهذا الطول؟ استدرت وبدأت أتكشف تفاصيل المكَان الذي لم أكن لأطئه وأنا مجرد زبون لا تراني روكا سوى ساعة من نهار، لم تكن غرفتها عادية أبدًا، لا شيء منها يوحي بأنها غرفة تدير بها مطعمًا بهذا الحجم وبطاقم من ثلاثين نادلًا وخمسة عشر طاهيًا وسبعة عمال نظافة يُشرفون على طابقين من الفخامة الخالصة، لها وكيل أعمال فَذّ يُغنيها عن الحضور حتى وقت متأخر سوى في الأيام الأشد حاجة لوجودها، يعملون كخلية نحل على مدار الساعة، هنا عالَم يشبهها خَمَّنت ذلك من صور العازفين الذين استقروا على حائطها، أرائك كيا، النجف العصري الدافيء، ورف كتب صغير يجاور ثلاجة عصائر وماكينة قهوة، شيء يجعل أيَّ شخص يفضل المبيت هنا على أن يغادر بعد ساعة واحدة فقط، حتى قطعني عن تحليلي رنين جرس الهاتف الأرضي كان على يمين مكتبها الزجاجي، مَن سيتصل في هذه الساعة وبمن؟

– مرحبًا.

– لستَ نائمًا إذن؟

إنها هي. صوتها شبه ناعس:

– لَم أستطع النوم، وأنتِ؟

– لا، أَرِقْتُ كالعادة، لكن، لورانس، هل ستقاضي كاميني حقًّا؟.

شيء هو حتما سبب أرقي لليلة.

– شيء ليس عليه أن يؤرقك أنت، بل هي.

– لورانس أرجوك، لا تتسرع، قد تؤذي فعلتك هذه طفلك.

– سيتأذَّى أكثر إن تركتُه، أراه ينتحر بعد عشر سنوات على أقل تقدير، سيلقي بنفسه من فوق بناية أو تحت سكة قطار بعد أن يوجِّه لي لاذعَ لومه على الملأ، أنا آسف لأجلها، لكن لم تترك لي فرصة، ولا أدنى فرصة، لستُ شريرًا أبدًا، لم أَقْوَ على فصله عنها، هو يحبها، يحتاجها، أنا أعلم يقينًا ما معنى أن ينفصل صغير عن أمه، لم تكن بهذا السوء، لم يكن قد تضخم وهمها تجاهه بهذا الشكل، رفضت عرضها على طبيب نفسي، رفضت تدخل عائلتها، أصدقائها، حتى أنا، طلبتِ الانفصال عني، هي تحبني حد الموت، كنت أحبها أكثر مما تظن، رفضَتْني، قاومت حد الاستماتة وجودها معي، شعرت أن توأمة روحنا قد انفصلت،

أطفأت شموع حياتنا المتوهجة، سلمت لقدري نحوها، أما صغيري، لا يمكن أن أمنحها انتصارًا عليَّ وسيلتها الوحيدة فيه هي بُنَيّ نُوح. هل تفهمينني؟

كان سرد جملة أسبابه كمحامٍ بالفعل، لم أَقْوَ على مجابهته فقلت:

- ومتى سيكون ذلك؟

- قريبا جدًّا.

***

لورانس، روكا، كاميني

بعد عشرين يومًا

فناء المحكمة

– هل أنت مستعد يا لورانس؟

قلت هذا بينما أتى نَحوي مسرعًا يحمل كومة ملفات بِسُمْكِ خمسة سنتيمترات، كان قد أورد لعدالة المحكمة مِثْلَه. زم شفتيه وأَحَدَّ نظرته:

– أتم الاستعداد.

– هل مِن فرصة للتراجع؟

همستُ.

– فقط إن تراجعَتْ، لأجلنا جميعًا.

– هل سننتظر كثيرًا.

قلت هذا بتوتر.

– ليس إن لم تتمكن من الهرب.

– يا إلهي. لا؟

اتسعت عيناي فجأة وأغمضتهما سريعًا في شيء أربكه.

– ماذا هناك؟

– إنها كاميني... و... والِدُك!

***

المحاكمة

الجلسة الأولى

– فليسجلِ المُحضر أن المتهمة ومحاميَها حاضران وأن هيئة المحلَّفين جالسِين. سيدَ لورانس يمكنك البدء.

هكذا افتتحت حضرة القاضية "إليزا راين" الجلسة الأولى من محاكمة كاميني أدريان.

– شكرًا حضرة الرئيسة، أُسعدتم صباحًا سيداتي سادتي، اسمي لورانس دين، وأمثل الادِّعاء في القضية الموجودة أمامكم، ستبيِّن أدلةُ القضية أن طفلي نوح البالغ من العمر سبع سنوات فقط، قد مُورست عليه ممارسات غير قانونية وبشكل واضح لتغيير جنسه دون رضاه، مِن قِبَلِ والدته البيولوجية السيدة كاميني أدريان الماثلة أمامكم، سنُثبِتُ أنه وخلال الشهر الأخير كم كانت تصرفاتها ضارة للغاية بطفلي القاصر!! حين لم تكتفِ بالتغيير الشكلي الظاهري لهيئته كذكر بجعله يرتدي ملابسَ أنثويةً صريحةً من أثواب قصيرة، وتغيير تصفيفة شعره

لضفائر طويلة عدا عن إلباسه ملابس السباحة الأنثوية وطلي أظافره، في شيء قد مارسته طيلة فترة حضانتها القانونية له كوننا والِدَيْن له قد انفصلنا منذ ستة أشهر، حتى قد تبيَّن وبشكل أثبتَتْه السجلات الطبية أنها وخلال الشهر الماضي قد أقدمت على حقنهِ بهرمونات تغيير الجنس دون موافقته، وهذا مرفق في التقارير الطبية المرفقة لدينا، التقرير الأول من طبيب الأطفال د. جونز الذي سيوفي سيادتكم ما يؤكد استخدام هذه الأدوية وجرعاتها بناء على الأدلة المشاهدة من صور ومقاطع ڤيديو مصورة بشكل لا يخفي حقيقة حقن طفلي بهرمونات ابتغت منها السيدة كاميني تحويله لأنثى قد أرسلتها على هاتفي الشخصي من رقمها الشخصي المثبَت من شركة الاتصالات على رقمي المثبَت أيضًا، كما وقد قدَّمت نفسي، فأنا أمثل الادِّعاء العام، نيابةً عن طفل أَبَى أن يكون هنا، طفل وجد نفسه غير مرغوب فيه، انظروا إليه جميعًا، هذه صورته بين يدي، طفل بريء يتوسط جلستنا وأمه، لا يعلم بأي من العقاقير التي ستودي به إلى الهاوية إن لم نَنْجُ به اليوم، سيغدو بعد سنين شخصًا لا نعرفه، هو لن يعرف ذاته، لكنه سيبقى حبيسها، إن استطاع الصمود ولم يَلْقَ حتفه بنفسه. سيداتي سادتي، أيها المؤمنون بالحريات، أي حرية في سلب شخص من ذاته؟ أن يُستبدل كليةً، ليس برضًا منه أو اختيار، ودون وعي كامل بمدى الخطورة الواقعة عليه. والآن هلا تفضلت د. جونز.

تقدم الطبيب الستيني الشهير ذو الندبة العميقة فوق عينيه ليدلي بشهادته:

– نعم، بحسب ما قد ورد في التقارير وبحسب مشاهدتي الدقيقة وتقييمي لحالة الاختلاف التي ظهرت على الطفل نوح من خلال مقارنة صوره الشخصية قبل شهرين من الآن كتغيير واضح في وزنه بالزيادة حوالي سبعة كيلوات ومن زيادة في منسوب الدهون في الوَركَين يثبت بأنه قد تلقَّى حقنًا بالإستروجين قد يسبب على المدى البعيد مخاطرًا صحية شديدة.

قاطعه كصقر مستفهمًا:

– د. جونز، مزيدًا من التوضيح من فضلك.

– الجلطات القلبية في هذه الحالة أمر بديهي، اعتلال ملحوظ في صحة القلب والأوعية الدموية و...

– هل يمكنني الشرب؟

كان قد صمت الطبيب فاستأذن لشرب كأس ماء كان أمامه، فاستحثَّه لورانس بإيماءة من رأسه بعد أن فرك عينيه المتعبة، لم يكن قد نام طيلة الليل، فأكمل:

– حقًا هذا شيء لا يمكنني إخفاءه، سيكون على موعد قريب من

آلام الثدي، واختلال وظائف الكبد، هذا شيء نقدره كأطباء أطفال ومن الصعب تخيله قد وقع على طفل صغير بعمره.

– هل تعتقد أن فعلة كهذه تعتبر جريمة؟

انتفض والده ليقول:

– أعترض، إنه يقود الشاهد للحكم، حضرة الرئيسة.

– اعتراض مقبول.

قالت السيدة إليزا.

– شكرًا د. جونز.

كان وقع شهادة الطبيب على وجه لورانس يحمل تفسيرين استطعت قراءتهما من موقعي، تجهمًا لما سمعه قد بان على ملامحه التي اتخذت شكلًا أكثر جدية وامتعاضًا، وارتياحًا في عينيه لما أكَّده الطبيب بما يسير في صالح القضية فشكره لينتقل لأخذ شهادة الأخصائية النفسية في مدرسته فقال:

– د. مارشال، هل تَرَيْن أيَّ تغيير نفسي ملحوظ على صحة الطفل النفسية؟

أجابت وقد أعادت نظارتها للوراء:

–حسنًا سيد لورانس، بصفتي أخصائية نفسية في مدرسة نوح كنت

قد عاينت حالته عن قرب؛ نظرا لما أبداه من تغيير واضح في سلوكه ليكون أكثر عدوانية مضطربَ المِزاج، مهتز الشخصية وحساس بشكل مفرط إزاء تقارب زملائه الذكور له، أعتقد ممَّا لا شك فيه أن تَدَنِّيًا واضطرابًا قد حدث لنظرته الشخصية تجاه نفسه كذكر قد بدأ التحول تدريجيًّا لأنثى. أعتقد أنه في موقف في غاية الصعوبة حقًّا.

– حسنًا د. مارشال، من موقعك كطبيبة هل ترين أيًّا من الآثار السلبية التي قد تلحق به على المدى البعيد؟

– سؤال جيد سيد لورانس.

شكرها بدوره بابتسامة قصيرة أردتُها أن تدوم، فهزَّت رأسها يمينا وأعادتها:

– قطعًا، قطعًا سيد لورانس، أسوأ سيناريو يمكن تصوره هو أن يُقدِم على الانتحار، شيء فظيع حقًا، شيء يمكن تجنبه الآن، وإلا سيلحق بركب واحد وأربعين بالمئة من المتحولين الذين حاولوا الانتحار مقارنة بغيرهم، شيء نعزوه نحن كأطباء نفسيين لضغط اجتماعي ووصمة تمييز تلاحقهم من غير المتقبلين لهم أينما كانوا، أرى هذا يقينًا.

أراه قد ارتبك، لم يستطع كبتَ مشاعره كأب، عيناه تزوغان، حلَّ بهما الدمع سريعًا، يا إلهي! ليس الآن يا لورانس.

– شكرا جزيلا د. مارشال.

قال وقد عاد بضع خطوات للوراء، التفت نحوي كعائد من سباق في مضمار ركض، يطلب دعمي:

– أما والآن وقد عروض الشهود أدلتهم، نطلب من عدالة المحكمة اعتبار هذه الأدلة والشهادات كافية أن السيدة كاميني أقدمت على تصرفات انتهكت حقوق الطفل وسبَّبت له ضررًا كبيرًا.

قالت بصوتها الوقور، ينم عن شخصية عقلانية:

– شكرا سيد لورانس، سنبدأ الآن باستجواب السيدة كاميني.

***

استجواب الأم

بهيئته كغول متمرس في مهنته تقدَّم السيد هنري إلى جوار كاميني وبادر بالسؤال فيما كانت تبدو متأهبة لعراك.

– سيدة كاميني، هل تُنكرين ما نُسب إليك مِن تُهَمٍ حول حقن طفلك بالعلاجات الهرمونية؟

زمت شفتيها ورفعت عينيها صوب لورانس:

– لا، لا أنكر هذا، هذا طفلي، وحيدي، واعتقدت أن هذه وسيلة لجعل حياته أفضل.

– مزيد من التوضيح من فضلك، كيف تصفين علاقتك به كأم؟

بدأت تُخرج من فمها الكلمات بصعوبة حين وُضِعت في موضع التبرير:

-إنه طفلي، سيد هنري، لمدة سبع سنوات قد واجهتُ صعوبة بالغة في تقبُّلِه كما هو، لم أعرف إن كنت أحبه أم لا، لكنني أحبه الآن أكثر، لكن هذا ما شعرت به منذ اللحظة التي علمت بها أنه ذكر، في شيء لم أفهمه، لأجل هذا خسرت زوجي، بيتي، سعادتي، أنا حزينة جدًا لأجل هذا، أعرف جيدًا ما شعور أن يخسر المرء حبه، استقراره، لكن أنا أحبه الآن، أليس هذا ما يجب أن يكون؟ أن أكون قادرة على أن أحبه، لذا لم أفكر في شيء آخر، أريد وبشدة أن أكون أُمًّا محبة له لكن بشكله الحالي وبالشكل الذي سيكونه مستقبلًا.

لورانس وقد اتخذ مكانًا بجانبي يتمتم:

-أنتِ كاذبة، أنتِ كاذبة، ضَحَّيْتِ بنا لأجل أهوائك، قررتِ فجأة أن هذا ما تريدينه.

ثم وقف وقاطع:

- سيدة كاميني، هل تعتقدين أن ما قمتِ به كان يتماشَى مع مصلحة طفلك أم أنه كان تعبيرًا عن رغباتك الشخصية؟

يعترض السيد هنري:

-عذرًا، حضرة الرئيسة، أود أن أطلب من المحكمة توضيح نطاق الأسئلة التي يتم طرحُها؛ حيث يبدو أن هناك محاولة للتأثير على مشاعر هيئة المحلَّفين.

تمتم لورانس ثانية وعيناه تحترقان:

- لِمَ تفعل هذا يا أبي؟

ليردف الضليع بسؤاله:

-هل توضحين طبيعة علاقتك بطفلك قبل الطلاق؟

وفجأة في شيء نكأ ما بداخلي، لا، ليس الآن، ليس تحت هذه القبة، لكن الأمر كان أكبر من أن أتجاهله، أغمضتُ عينيَّ؛ طنين صمَّ أذني، صوت غربان، خفافيش، صافرة قطار، لا أعلم، انفصلتُ بإحساسي بما يدور من حولي، لا أرى شيئًا سواها قد اتخذت مكان كاميني، ها هي أمامي، في ذات المكان أشاحت بوجهها عني، لها ذات العين الحجرية، صامتة، لا مبالية، لا أسمع شيئًا مما تقول كاميني، أنا الآن أسمع أوجاعي تطفو على السطح، تحدث قرقعة لا يسمعها أحد سواي فأجيب كأنما توجه الضليع بسؤاله لي:

-لا يا أمي، عشتُ سنين طوال لا أفهمك، أعرف يقينًا بأنك أمي، لكن ليس أكثر من ذلك، بقدر فهمك لي كابنة، حيث لا علاقة، لا تواصل، لا محبة، نعم لا محبة، كنت قد اخترتِ ذلك طواعية،أنا أفهم

ذلك، شيئا وحيدًا فهمته، أنك وهبتِ مشاعرَ صلدةً ما ذابت يوما، كستارٍ حديدي، لو تخيلتِ يوما كيف يعيش شخص لا يعرف أين موقعه من قلبِ أمه، كيف يتقلب على شوك الظن فيدمى قلبه وجوارحه حتى مشاعره، كيف أسوغ الاحتمالات والأسباب، مع شمس كل صباح ومع قمر كل ليل، أسأل كيف حدث هذا؟ كيف ابتدأ؟ ولِمَ؟ لأحصل على إجابة ما منحتِنِي إياها يومًا، أن لا أعرف، ليس عليَّ أن أعرف، تركتني هكذا، أعيش بدوار الجهل، لماذا أنا؟ لماذا أنا تحديدًا قد ابتلَى برفض أمي لي؟

أحسستُ بلورانس قد دخل متاهة السؤال، يواجه والده العادل، أغمض عينيه، انفصل كما انفصلتُ أنا، عيناه تجاهي دونهم، أحس بذلك، يقول كمن يشكو:

-والِدِي، تُجيد دورك كمحامٍ ضليع، لكن لَم تستطع طوال عقودك الخمس أن تلقي على مسامعك سؤالًا كهذا: كيف تصف علاقتكَ بي؟ حتى أنك هنا اليوم تقف قبالتي ضدي، لكن أنا سأخبرك: كنتَ أبًا جيدا، بقدر جودتي كابن، بقدر ارتقائي لمعاييرك أنتَ، فعلتُ هذا سنين كثيرة، انسلخت عن ذاتي في كل مرة أيقنت فيها أنني قد أغضبك، لم أعرف للاختيار طريقًا، لَم تعلمنِي كيف أختار، جعلتني تائهًا أريد مَن يُمسك بيدي طوال الطريق ألا أتوه، حتى فيما يتعلق بطفلي وقفت حائرًا زمنًا، لا أعرف كيف يمكن للمرء أن يرفض، لا أعرف كيف للمرء أن

يواجه، لا أعرف كيف أربح أو أخسر، حتى قابلتُها.

أجيبه دون أن يخاطبني:

-كيف فعلتُ ذلك؟

يعود الضليع ويلقي بسؤال آخر:

-سيدة كاميني، هل كنتِ يومًا أُمًّا غير صالحة، هل عانى طفلك الإهمال أو التجاهل أو أي نوع من أنواع السيطرة؟

طنين سد أذني أكثر، كانت قد اختفت ثم عادت قد اتخذت ذات المكان، أتراها ستجيب بدلًا منها، هل تملك إجابة ما؟

كم أنا غبية، كيف لي أن أتوقع شيئًا كهذا، لا أصعب من الإجابة على مَن لا يملكها، ولكنني أملك الكثير، أملك أكثر من أي شخص قد التقيت به، أكثر من عدد المارين أمامي في حَيِّنا البائس، لديَّ تُخمَة التجاهل واللا وجود، أكاد أصيب بالعدوى مَن يقترب مني، في شيء لا أنساه أبدًا، كم من المرات لم أعرف كيف أخبرها بسر! كيف أبوح لها بما في داخلي؟ كانت قد استعاضت عن حنانها بشوك، أخشى الاقتراب منه! هل من أحد يخشى قرب أمه؟ لكنني حاولت، مرة ومرتين وألفًا وألفين وفي كل مرة كان الشوك يعلق بي فيُدميني، فأعود أحاول ألفًا وألفين وثلاثة آلاف من المرات، ولكن هذه المرة لأفهم لماذا، لماذا أنا؟ لماذا أنا قد لا تَقبل بي أمي؟

لا زال لورانس يتمتم:

– حتى التقيت بكِ.

صار يتبختر جيئة وذِهابًا بشكل زاد ثقة عما قبل ليعيدني صوته الجهوري لسؤاله:

– سيدة كاميني، هل كنت تعلمين أن طفلك سيواجه مشكلات صحية أو نفسية تجاه هذه العلاجات؟

– حقيقة، لا أعلم، أنا شخصيًّا لم أكن أدرك أن التأثيرات ستكون بهذا السوء، بالطبع لا، كنت أتصور أنني أفعل الشيء الصحيح، أفعل ما يجعلني قادرة على قبوله، يا إلهي! أنا مشوشة، تائهة.

حينها توجه السيد هنري أمام السيدة القاضية وهيئة المحلفين شارعًا ذراعيه بثقة:

– أما وقَدِ استمعتم لإدلاء السيدة كاميني أنها كانت على جهل بأي من التأثيرات السلبية لحقن طفلها بهرمونات الإستروجين ومثبطات التستوستيرون وأنها قد كانت تسعى لمصلحة.

فأصرخ وبأعلى ما في حنجرتي من صوت حتى اهتزت على إثرها القبة من فوقي:

–لا، لا تفعلي بنفسك هذا يا كاميني، لا تفعلي، لستِ مضطرة لفعل

ذلك، أنتِ تعلمين كامل العلم أن طفلك قد ساءه ما تفعلين، إنه يتألم فوق آلام كل مَن في هذه القاعة، لقد أدميتِ قلبه بفعلتِكِ، إنه مضطرب، مهزوز، مريض، لقد رأيتُ ذلك بعينيَّ، لذا أنا هنا اليوم أشهد، إنه خانع خاضع حتى أنه قد رفض مواجهتك اليوم، إن كان لديك من إجابة، فأي ذنب قد اقترفه فلذة كبدك كي لا تقبلين به؟ أي حق قد امتلكتِه كي تجعلي منه شيئًا غير ذاته، أي قلب لديك قد فاضَل بين كونه ذكرًا كان أم أنثى، لا أشك بقلبك يا كاميني، لا أشك بقلب لورانس الذي اختارك أمًّا له، قد أفهم على عكس الجالسين هنا تَوْقَكِ أن تُحبيه، لكن ذلك ليس ذنبًا قد اقترفه بحقك بكونه ذكرًا، إن كنت أقف هنا، فقد كنت واجهت في ماضيَّ شيئًا يشبه ذلك، لا، بل ربما أشد، أن لا يُقبل بي كليةً، في شيء من أقسى ما يجابهه المرء في حياته يا كاميني، ربما لا تعِي ما أقصد الآن، لكن كل ما في جعبتي نحوك، هو أننا لا ننجب أبناءنا لنحبهم فقط وإنما ليحبونا، لديك طفل لا خيار له إلا أن يحبك رغم خوفه، أرجو على قلبك ألا يفقده.

في شيء أدهش لورانس وراح يحدق بعينين ذاهلتين وصوت صفيق كل من في القاعة حتى دخلت الضابطة ميريل تهمس في أذن السيدة إليزا:

– الطفل نوح يود الإدلاء بشهادته، فأومأت بالموافقة.

وَلَجَ ولم يكن على هيئته الأخيرة التي رأيتُه فيها، لا زال شعره طويلًا وإنما خلع عنه الثوب الأنثوي ليستبدله بقميص أزرق وبنطال وحذاء رياضي أبيض ليتخذ مقعده على منصة الشهادة فتسأله حضرة الرئيسة:

– مَنْ أنت يا نوح؟

– أنا فتًى.

كررت سؤالها كمَن لم يسمع وإنما كانت قد سمعت، عيناه تجاه أمه:

– مَن أنت؟

صاح مهللًا:

– أنا فَتًى.

– حسنًا، بعد سماع جميع الأدلة والشهادات، ستقوم المحكمة بمراجعة حيثيات القضية واتخاذ القرار المناسب في جلسة أخرى، رُفعت الجلسة. قالت السيدة إليزا هذا، فغادرنا جميعًا قاعة المحكمة حتى نادت كاميني:

– سيدة ميلر، أنا حقًا أعتذر، أشعر بأنني ارتكبت شيئًا فظيعًا، أنا لا أستحق كوني أُمًا. أنا...

قاطعتُها:

– لا، لم يفت الأوان بعد مدام كاميني، هذا الطفل الذي تمسكين

بيده الآن لا زال ممسكًا بك، هو لا يعرف قلبًا غير قلبك، أنت وحدك عالمه، لم يفت الأوان بعد، ثقي بي.

جثت على ركبتيها فصارت بمستوى طول طفلها الصغير:

– اغفر لي يا صغيري، أتضرع إليكَ راكعة أن تصفح عني، لقد خدعتك وخدعت نفسي، كان حلمًا، خيالًا، ما أشد ما أتألم من أجلك اليوم!! فاصفح عني، سامحني؟

– يا إلهي، ها أنت من جديد أيها العرّاب، خالطت بسمتي أدمعي، فألتفت وإذا بهما قد تقابلا وجهًا لوجه، إنهما أبعد من أن يمكنني سماعهما، لكن قد امتلك لورانس وجهًا شديد التعبير رغم جموده، كان يقف على بعد شخصين من والده، أنا أعرف هذا البعد، ليس مقتصرًا على المسافة، حتى رأيت والده المهيب قد مد يده مصافحًا يحمل مظلة سوداء عملاقة غطتهما، يهز رأسه لأعلى ثم أسفل ويحبس كلماته، لورانس لا زال واقفًا، لم يستجب، أراه محطمًا عن ذي قبل، يرفع يده ببطء، يرفعها أكثر، تلامس كف أبيه، تغوص فيها، ربما هذه البداية لشيء جديد، لكنها ليست النهاية.

– إلى أين يا روكا؟

نادى لورانس من بعيد.

–أرغب بالمكوث وحدي.

ستيف، ساندرا

– لا ساندرا، ليس عليك أن تفعلي، ستكونين أفضل أم على الإطلاق، بل عليك أن تكوني أُمًّا، أعدك سنحاول من أجل هذا.

– ليس قبل أن نذهب إلى مكان ما.

– إلى أين؟

– ستعرف في الحال.

***

Galveston isalnd
ڤيلا الشاطيء
شارون، ساندرا، ستيڤ

– مرحبا سيدة ساندرا. مرحبا سيد ستيڤ.

قالت هذا بينما صافحَتْنا مبتسمة من أمام باب ڤيلا الشاطيء خاصتها.

– مرحبا سيدة شارون.

قلت غامزة.

– ما الذي يحدث هنا ساندرا؟

قال ستيڤ مندهشًا.

– هنا ستعرف كل شيء.

قالت شارون بعد أن أشارت لنا بالدخول فصرنا في قلب ڤيلتها الرحب. أتت وقد أحضرت أكوابًا من الشاي الفاخر لثلاثتنا، في جو عائلي حميم:

– هل يمكنني فَهْم ما يدور هنا.

قال واضعًا كوبه على الطاولة. أنزلَتْ بدورها كوبَ شايها بعد أن رشفت منه رشفة لتعلِّق كم هو ذو مذاق فريد لتقول:

–حسنًا، سيد ستيڤ، تريد أن تعرف كل شيء، بعد أن مزَّقتني إربًا قبيل ساعة، لكن لا عليك، أنا أفهمك، وقد طلبتَ أن أعيد لك الطفلة ماغي، وكأنني تعلمت كيف ألوِّح بالعصا السحرية فتُحضر في الحال أيَّ شيء خيالي تطلبه يا ستيڤ؟ ولكن حسنًا، لا ضير في الخيال إن كان سيفضي إلى حقيقة. قالت هذا بينما خرجت الطفلة من باب غرفتها وقد نادت:

– ماما شارون، شاارون.

في شيء أدهش ستيڤ حتى كاد أن ينزلق جراء ركضه تجاهها ليقول مقبِّلًا إياها:

– ماغي، أنتِ هنا، أنتِ هنا، ولكن كيف؟ كيف؟ ألستِ في فلوريدا؟

– عليكَ أن تجلس يا ستيڤ.

قالت بصوتها الوقور فامتثل دون أن يترك الطفلة من يده:

– لم أكن لأفعل هذا بكما، ولم تكن هذه الطفلة قد خطت خارج الدار خطوة واحدة إلا هنا. ساندرا تعرف هذا أيضًا.

– ساندرا؟

قال مذهولًا وقد اتجه نحوي.

– كانت هنا في الأسبوعين الأخيرين، هنا برفقة جدتها التي هي أنا، أحببتُها هنا أكثر، رأيت فيها طفلتي التي حُرِمْت منها؛ حيث أنت افتقدتَها في حفل الدار قبل ساعات، ولم أكن لأَكذب إنِ ادعيت بأن زوجين قد طلبوا تَبَنِّيها، ولكنني رفضتُ، رفضت لأَجلكما، لأجل قلبك يا ستيف، كنت أعلم تمامًا كيف أن قلبك وعقلك لن يتصوراها في مكان غير الذي تكون فيه ساندرا، ساندرا التي علمت بقصتها من خلالك أنت، في إحدى الليالي التي كنتَ فيها ثملًا، تنطق باسم ابنتي الراحلة، تحكي قصتها كما لو كان بثًّا تلفزيونيًّا مباشرًا، بعد تلك الليلة التي واريتموها الثرى، كنتَ ثملًا، بائسًا، تصرخ كمن يحاول إيقاظها، أخبرتَها أنها ابنة أعز صديقة لك، صديقة قد تركت طفلتها وحيدة أمام عينيها، إلى أن تخلصت من عذاباتها بيدها، لستُ أعفِي نفسي من أي ذنب، وإن كان من عقوبة قد حصلتُ عليها، فكان موتها بسببي أنا، هي تلك العقوبة، أما هذه الطفلة التي ملأت أركان بيتي حبا في أيام قليلة، كنت أعلم أنك وساندرا الأقدر على رعايتها مني، حيث أقر أنني أضعف من أن أحتمل لومها أو عتابها فلا أملك حينها جوابًا، وإن امتلكت فهو أبعد من أن تقبله، بعد أن كنت أنا السبب في جعلها دون أم طيلة حياتها، حيث فقدتها بأبشع ما يمكن للمرء أن ينهي به حياته، ونعرف أن حتى فكرة تبينها هي الأصعب عليك يا ستيف، أنت تخفي في ذاتك

أبًا رائعًا، وإن كنتَ خائفًا، رأيت ذلك في تلك الليلة التي أحضرتها إلى الدار، كنتَ قد ابتعت لها لعبًا وطعامًا ولباسًا، دائما ما كنت جاهزًا كي تكون أبا يا ستيف، ظهر ذلك جليًّا حينها وقد أخبرت ساندرا، أخبرتها بكل شيء، لذا كان علينا أن نريك هذا بعينك ،اختلقنا هذه الحيلة كي تكتشف بها ذاتك، تكسر بها خوفك، وقد نجحت، نجحت يا عزيزي، لا أحد قد أئتمنُه على طفلتي إلَّاك، تقدمت ساندرا بطلب صريح لتبنِّيها منكما، كأب وأم ستكونان أنتما الأروع على الإطلاق يا صديقي، ولذا هذا المكان وكل ما جمعته طيلة سنوات المجد والبريق، سيؤول إليها، وإن كان صعبًا لكن علَّها تغفر لي.

***

روكا

كان الليل قد ألقى بسرباله على هذا المكان، لم تخطُ قدماي زمنًا هذه الأمكنة، أشياء كثيرة قد تغيرت، وأشياء كالتماثيل الصامتة بقيت كما هي، الناس هم ذاتهم، أتربة الشوارع ذاتها، سرت طرقًا كم تمنيت ألا أعود إليها بهذه الحال، نسيتها أو تناسيتها، صورتها ضبابية بلا لون، بلا بهجة، لكن أنا هنا الآن، هنا في هذا المكان المنزوي من الحي، كان قد اعتنى حارسه به، يطرد المتسللين بين الضروح يشمون الكوكايين، وهناك حيث كانت ترقد بسلام، نامت هنا منذ زمن لم أعرفه، فآتيها منذ زمن لا تعرفه، أقف قبالتها الآن، محمومة، تفتك بي آلام رأسي، كتلك الأيام التي نمت بها دونها، فأنادي: أمي، أنا هنا الآن، حيث لا يأتيكِ أحد، يخبرني بذلك الحارس في كل مرة أكون بها هنا، أجلس قربها، هنا أنا أقرب إليك أكثر من أي وقت مضى، فهل أنتِ بخير؟ آمل ذلك، لم تكوني كذلك قبل أن ترقدي هنا، أنا أعلم، أخبرني طبيبك بكل شيء، فهل تسألينني إن كنت بخير؟ لن تسألي؟ حسنًا، أيا يكون سأخبرك:

-أنا اليوم أم لطفل هو أجمل أقداري، يغني ويرقص ويعزف، هو سعيد، سعيت لأجل ذلك، أفيق كل يوم لذات الهدف، يحبني، كرست نفسي وقلبي وجوارحي لأجل ذلك، يقبِّلك في كل مرة يقلب صفحات

ألبوم صورك، ستحبينه أيضًا.

أما اليوم أحسب نفسي فعلت شيئًا عظيمًا، كنت في محكمة، لم أدخلها في آخر مرة كنت فيها أرفع دعوى طلاقي، لِمَ تستغربين؟ أنا أم منفصلة، اخترت ذلك قبل أن يختارني، هو أراد ذلك وَأنا جعلت من الأمر سهلًا، هو خائن ذو مال قد أجبرتني الحياة معك على الزواج منه، وأنا امرأة عُجنت بالوفاء، هو يتتبع البغايا، يغريهن بماله، يشتممنه فيتبعنه أينما كان، جعلني أشمئز، لم يكن لطفلي أن يعيش في حياة كهذه، لذا كان سرعان ما استحال العيش بيننا، كالسيدة كاميني سيدة المحكمة ومع فارق التشبيه، رأت في حياتها مع لورانس مستحيلة، كان يحبها حد الجنون، لكنها اختارت ذاتها وطيشها، رفضت طفلها، وضعت معيارًا كي تحبه، أن يكف عن كونه هو، لكنها كانت واضحة، هي مخطئة لكن واضحة، لكن أنتِ يا أمي، وللآن، هنا، أمام ضريحك الغارق بالمطر، لم أعرف لِمَ لَمْ تقبليني؟

– روكا، روكا.

– هل تناديننني؟ هل صحوتِ؟ ما بال صوتك قد صار أجشًا؟

روكا، عاد الصوت، التفتُّ يساري، مسحت عينيَّ، لا شيء يَبين في هذه العتمة، يمسك بيدي:

– لورانس؟ أنت؟ أنت كيف هنا؟

كان لا زال في معطفه الأسود يقطر بالماء كما رأيته قبلًا:

- أنا كنتُ في كلِّ المرَّات التي أتيتِ بها هنا، شيء عجيب أليس كذلك؟

- م... ماذا؟

-أنا آتي لذات السبب الذي يجيء بكِ إلى هنا؛ إنها أمي، ترقد هناك تحت شجرة السرو تلك، كم أخفي عني والدي مماتها كما حياتها!! لذا أنا كمن يحيا حياته بشكل معاكس، أُعيد طفولتي وشبابي هنا معها، أمام هذه الأحجار وتحت هذه الشاهدة المنقوشة باسمها، شارون هيدج.

***

روكا، لورانس

نقف الآن على عتبة بابي معا، وصلنا منهكَيْن، كان يسعل وكنت أحاول إجبار نفسي على الوقوف:

– هل تريد الدخول؟ أو، لا، لا أقصد هذا، لا يمكنك، طفلي نائم الآن، لا أحب أن...

– أفهم هذا يا روكا، لكن إلى متى؟

– طِبتَ مساءً يا لورانس.

– طبتِ مساءً.

قالها زامًا شفتيه مولِّيًا ظهره لي فدخلتُ وقد صار بعيدًا عني فأقفلت بابي ولكن...

– لورانس؟

ناديتُه فعاد راكضًا إليَّ:

– ما هذا؟

قلتُ وقد أشرتُ إلى كومة الرسائل البريدية الواردة منذ خمسة وعشرين يومًا من عنوان لا أعرفه والتي تراكمت وكنتُ لا أفهم سببَ

ورودها لي، كان دائمًا فحواها:

– شكرًا، حقًّا شكرًا، أنا مدينةٌ لكِ بحياتي. شكرًا، شكرًا جزيلًا.

– دعيني أرى هذا.

صار يمر بعينيه على كومة الرسائل فقال حين سمع خُطًى عجولة من بعيد التفت إليها، كان د. جو مالكوم:

– ها قد التقينا مجددًا أيتها الغريبة، شكرًا على إنقاذ حياتها.

***

روكا، د. جو مالكوم

– كيف هذا؟

– في تلك الليلة التي قاومتِ فيها ذاك المهووس، كدتِ أن تفقدي فيها حياتك تمامًا، لأجلها وتوم، أنامِلُك الجريحةُ ألم تخبرْك بهذا؟

– توم؟

– توم. ذاك الفتى ماضغ العلك.

– أهو طفلك؟

– ربما، وإن لم يكن يكفي أنه طفلها.

– هل لا زلتَ تحبها؟

قال وقد هَزَّ كتفيه:

– ما حيلتي أمام حورية مثلها؟

بعد شهر واحد:

- هيا هيا، إنها البراونيز.

- يا لِهذا الجمال!! أُنظر يا أوليفر، لا، لا تدع يديك تلمسها، إنها ساخنة، آوتش!!!

يرن الجرس.

- أنا سأفتح الباب.

- أووووه عزيزتي ساندرا، قد التقينا أخيرًا، ها أنتما هنا ماغي، سيلين، كم كبرتما!!!

ضحكت ساندرا.

- لا أحد قد يصدق أنها أربعة أعوام فقط، تبدو فارعة جميلة شقية وتحب سيلين الناعمة أيضًا.

قالت هذا بينما قبَّلَتْهُما.

- ها قد حضرتُ ومعي المليونير الأبله: لا لا، أقصد الألطف، دعونا نبدأ الحفل على شرف وجودنا هنا جميعًا. صاحا يهتفان:

-التقت عينانا.

– روكا، لورانس، نادَيْنا اسمَيْنا معًا.

Well you mary me؟

البداية

Thanks to..

- Ruba ، Janna
- ROCA SANDRA
- Jamila s Mohammed
- Sawsan
- lama
- menna
- yahya

- **للتواصل مع المؤلفة:**

Jamila.2024.sa@gmail.com